٢٧٤

HARLEQUIN

روايات احلام

رماد الحب

آليسون فرايزر

www.elromancia.com
رومنسية

رماد الحب

عندما ظهر دراي على عتبة بابها، أدركت كاس أن المتاعب عادت... فلم تكن رأت دراي منذ ثلاث سنوات، بعد أن انتهى كل ما كان بينهما... ولكنها لم تكن مهيئة البتة لما يحمله من أخبار... فأختها قد ماتت، وعليها أن تعود.. ووجدت أنها غير قادرة على إدارة ظهرها له، رغم أن ذلك يعني عودة التجاذب الذي ربط بينهما سابقاً... فهل يا ترى سيعود دراي جزءاً من كيانها وحياتها مرة أخرى؟ أم أن قلبها تحصّن ضده أخيراً؟.

آليسون فرايزر

ولدت آليسون فرايزر في شمال اسكوتلندا وترعرعت هناك. درست الأدب الانكليزي في الجامعة وعلّمت الرياضيات لفترة، ثم أصبحت مبرمجة كمبيوتر. بدأت الكتابة كهواية ولا زالت تعتبرها كذلك، إذ لا تأخذ الأمر على محمل الجد! تعيش آليسون حالياً مع زوجها وأولادها وكلابها في برمنغهام، وهي في الاربعينات، لكنها لا تعرف ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر!

١ ـ صرخة من الماضي

خرجت كاس من القطار وهي تنظر إلى الأرض، كان الوقت قد تجاوز الغروب. ومع أن الشوارع مضاءة، إلا أن المارة قليلون تحت ذلك المطر الصيفي المبكر. لم تكن تحمل مظلة، فتبللت سترتها «الشامواه» وتدلّى شعرها حول وجهها كأذناب الفئران.

تمنّت لو أنها تدفع أقساط سيارة بدلاً من أن تدفع لسداد دين بنك تسليفات الطلاب. منعها التعب من الركض، فقد عملت طوال العطلة الأسبوعية ما جعلها تتلهف للنوم في سريرها ثماني ساعات دون انقطاع.

عندما انعطفت نحو الشارع حيث بيتها، لم تسمح لها حالتها بملاحظة شيء، ولا حتى تلك السيارة الفخمة التي تتناقض مع ذاك المكان، فتجاوزتها وهي لا تفكر إلاّ في إخراج مفتاح بيتها والدخول مباشرة إلى غرفة نومها.

لكن السائق رآها، بعد أن أمضى أكثر من ساعة في انتظارها. وبما أنه لم يعتد على ذلك، نفد صبره سريعاً. وقبل أن تصل إلى بوابة منزلها، خرج من سيارته وتبعها بسرعة، وقد ساوره شعور بأنها ستغلق الباب في وجهه إذا منحها فرصة لذلك.

سمعت كاس وقع الخطوات خلفها، فتسارعت نبضات قلبها، شأن كل امرأة في وقت متأخر من الليل، وأخرجت مفتاحها لكي تفتح الباب حالما تصل إليه.

لكن صوت وقع الخطوات تلك توقف عند بوابتها، فأعاق حركة أصابعها وهي تحاول إدخال المفتاح في القفل، فسقط من يدها. وتحوّل عدم

ارتياحها إلى حذر، فالتفتت وأوشكت أن تصيح في وجه ذلك الشخص الذي وقف بجانبها. لكنه بادرها بالقول: «لا تخافي، هذا أنا».

مضت لحظة لم تميّز فيها الصوت، لكنها ما لبث أن عرفته فارتاحت.

ـ أنا درايتن كارليزل.

هل يظنها نسيت؟ هذه إهانة.

لم ترَه منذ ثلاث سنوات، وقد تغيّر قليلاً، لكن شعره ما زال قاتماً ووجهه نحيفاً وعيناه ساخرتين. «أجمل رجل في العالم»، هكذا كانت تدعوه أختها بين ولم تكن تبالغ. لكن المؤسف أنه كان نذلاً للغاية.

وبصوت يماثل صوته غطرسة، رغم أن تلك لم تكن طبيعتها، قالت: «نعم؟».

انحنى يلتقط المفتاح الذي سقط من يدها، ثم سألها: «هل بإمكاني الدخول؟».

ـ وهل أستطيع أن أرفض؟

فقال وهو يناولها المفتاح: «طبعاً! لقد جئت لأحدثك عن موضوع يخصّ بين».

عرفت ذلك، فأخوه توم متزوج من أختها بين. وتساءلت عما إذا اقترفت أختها غلطة غبية مرة أخرى. ولم تستطع قراءة ملامحه وهو يقول: «إسمعي، هلاّ تكلّمنا في الداخل؟».

فقالت متوسلة: «ألا يمكننا تأجيل هذا الحديث؟».

ومع أنه لاحظ الظلال حول عينيها أجابها: «لا، لا يمكن تأجيله!».

فقالت وهي تفتح الباب، فيما تبعها هو إلى الردهة: «لا بأس، ولكن أرجو أن تختصر قدر الإمكان، فأنا مرهقة حقاً!».

ـ هل كنت مشغولة جداً خلال العطلة الأسبوعية؟

ـ نوعاً ما.

لم تشأ مناقشة هذا الموضوع، ولم تأبه بما يفكر.

ـ منذ صباح أمس وأنا أتصل بك.

ـ كنت خارج البيت.

ـ هذا ما استنتجته!

تصوّر أنها كانت في المدينة، فالحياة الاجتماعية الراقية هي آخر ما تفكر فيه الفتيات اللّواتي يبحثن عن المتعة. لكنها سرعان ما أزالت شكوكه عندما قالت له بلهجة التأكيد: «في العمل!».

ـ في السادسة صباحاً؟

بدا من الواضح أنه لم يصدقها، لكن هذا كان صحيحاً على كل حال. فقد داومت كاس في المستشفى ونامت ليلة الجمعة والسبت في غرفة صغيرة هناك.

لم تشأ الدفاع عن نفسها وقالت: «لا أعتقد أن هذا الأمر يخصّك».

فقطب جبينه وبدا عليه التوتر، لكنه أدهشها بقوله متراجعاً: «لا، ليس من شأني، هل يمكننا أن نجلس في مكان ما..؟».

وخلع معطفه، وانتظر أن تأخذه منه.

كانت تقف في باب غرفة الجلوس والماء يسيل من ثيابها، فقال لها وقد نفد صبره: «تعلمين أنني لن أهاجمك!».

لم يخطر هذا ببالها، لكنه خطر الآن. هذا لا يعني أنه سبق له أن هاجمها في الماضي، فقد كانت المشاعر حينذاك، بينهما متبادلة.

تلاقت أعينهما للحظة، لكنهما ما لبثا أن دفنا تلك المشاعر التي لوّنت علاقتهما لفترة قصيرة من الزمن. وأخيراً أخذت منه المعطف فعلقته على الشجب، ثم سارت أمامه إلى غرفة الجلوس.

كانت غرفة جلوسها سيئة المظهر بأثاثها الرث الذي اشترته من محلات الأثاث القديم المستعمل. وقد بدت حالة الغرفة مزرية أكثر مقارنة مع ثيابه البالغة الأناقة من قميص حريري وبذلة رمادية رائعة التفصيل.

كانت أناقته مبالغاً بها بالنسبة إلى هذه الزيارة العادية. تملكها فجأة شعور بالخوف، ترى هل تعرّضت أختها لمشكلة ما؟

نظرت إليه حين استقر في كرسيه ذي الذراعين، ثم انتظرت منه أن

يتكلم.

أخذ يتأملها، ثم قال: «يمكنني الانتظار إذا شئت أن تغيري ملابسك المبتلة!».

فقالت وهي تخلع سترتها وتضعها على مسند كرسي: «لا، أنا على ما يرام».

كان قميصها القطني الأزرق مبتلاً هو أيضاً، وكذلك بنطلونها الكحلي. لكنها صممت على أن تحتمل ذلك، وسألته من باب التهذيب: «أتريد شراباً؟».

ودهشت عندما قبل ذلك، قائلاً: «أفضل عصير برتقال إذا كان لديك بعضاً منه».

كانت تعني الشاي، لكنها أخذت تبحث في المطبخ عن برتقال ثم قالت: «آسفة، لا يوجد عندي إلا القهوة والشاي».

ـ القهوة، إذن!

وعندما أحضرت فنجاناً واحداً، قال لها: «أظن أنّ عليك أن تسكبي فنجاناً لنفسك أنت أيضاً!».

إنه خبر سيء. ماذا يمكن أن يحمل هذا الرجل غير الخبر السيء؟

أحضرت فنجاناً لها، وقدمت له فنجانه قبل أن تجلس على كرسي قبالته. نظرت إليه وهو يرتشف قهوته، ثم يلتفت وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة التي ينبغي أن يستعملها.

كان حدسها قوياً، فعصر هذا اليوم بالضبط، كان عليها أن تخبر أماً باكية بوفاة ولدها، وأملت أن تشعر المرأة بذلك قبل أن تضطر هي إلى قول تلك الكلمات بصوت مرتفع.

قالت تسأل درايتن كارليزل: «هل حدث سوء لأختي؟».

فأومأ قائلاً: «لا أدري كيف سأخبرك بهذا..».

فقالت بسرعة: «لقد ماتت!».

ثم أخذت تدعو الله ألاّ يكون الأمر كذلك.

بدت عليه الدهشة ما جعل الأمل يتجدد في قلبها، لكنه سرعان ما بدّد ذلك الأمل وهو يومىء بالإيجاب.

وأخذ يتكلم بالتفصيل، لكن الدم راح يتصاعد إلى رأس كاس فلم تستطع سماع ما قاله لها. شعرت بأنها على وشك الإغماء، فتنفست بعمق. وهكذا حافظت على وعيها، وأرغمت نفسها على التركيز على صوته. سمعته يقول: «وستظهر النتيجة يوم الثلاثاء».

ـ النتيجة؟

لم تستطع فهم كلماته بسبب ما فاتها من الحديث.

فكرر مقطباً: «نتيجة تشريح الجثة».

ـ لا يمكنهم أن يفعلوا هذا!

وتملك كاس الذعر لأجل أختها بين، الرائعة الجمال، صاحبة القوام الأشبه بقوام عارضة الأزياء.

فقال لها بهدوء: «إنهم مضطرون لذلك في حالات الموت غير المتوقع!».

كانت كاس تعلم هذا. لكن الصدمة الأولى تبعها إحساس بانعدام الواقع. وازداد ذلك الإحساس قوة حين أضاف: «يقول توم إنك ربما لم تعرفي بأمر الطفلة».

فقالت بحذر: «الطفلة؟».

أترى سرّ بين قد ظهر أخيراً؟

نظر إليها حائراً وقال: «الطفلة التي كانت حاملاً بها، موجودة الآن في غرفة العناية الفائقة».

هزت كاس رأسها غير مصدقة، هل حملت بين مرة أخرى؟

استنتج من مظهرها أنها لم تكن على علم بالأمر، فسألها: «ألم تكوني على علم بالأمر؟».

واستحالت دهشتها إلى غضب وهي تتمتم بصوت عال: «يا للغبية، يا للفتاة الغبية!».

فالتوى فم درايتن كارليزل بازدراء وقال: «يبدو أنها كانت تتوقع ردة فعلك هذه!».

فقالت وهي تتذكر آخر حديث دار بينها وبين أختها حول هذا الموضوع: «أنا واثقة من ذلك».

حذرتها حينذاك من الحمل، لكن بين، بالطبع، لم تسمع النصيحة.

تابع درايتن يقول: «أخبرت توم أنك قد تشعرين بالغيرة إذا ما علمت بالأمر».

أرادت كاس البوح بالحقيقة لتبرىء نفسها، وتنفي الشكوك التي ساورت درايتن حول هذا الموضوع. لكنها ارتأت ألاّ تبوح بها، بعد أن دفعت بين أخيراً ثمن كذبها!

وبدلاً من ذلك سألته: «ما هو التشخيص؟».

ـ التشخيص؟

ـ التشخيص للطفلة.

فقطب جبينه وقال: «حجمها جيد بالنسبة إلى ولادة قبل الأوان، ولهذا الجميع متفائلون».

أومأت كاس، ثم عادت وسألته: «وتوم؟».

جعله ذكر أخيه أكثر تجهماً، فقال باختصار: «يواجه الواقع!».

لكنها شكّت في صحة ذلك، فتوم كارليزل أقل غطرسة من أخيه الأكبر، وغير ناضج تماماً ولطيف المعشر.

قال لها، ليشير ربما إلى أنه هو من رتب الأمور، وليس توم: «رتبت أمر الجنازة ليوم الأربعاء».

فسألته: «ستحرقون جثتها طبعاً».

فرفع حاجبه: «لا، بل سندفنها.. لماذا؟».

ـ ليس هذا ما كانت ترغب فيه!

ـ وما أدراك؟

تعجّب لقولها ذلك، لا سيّما أنّه يعلم جيداً أن صلتها بأختها في

السنوات القليلة الماضية كانت سطحية للغاية. لكنها تعرف أختها أكثر من زوجها ومن أخيه، أختها الحقيقية وليس تلك الفتاة التي كانت متلهفة إلى الزواج من أسرة كارليزل.

فقالت: «لا يمكنك أن تدفنها. هذا هو رأيها في ذلك، فهي لا تحب أن يتعفن الجسد تحت التراب، وذلك منذ وفاة أمنا».

فقال والشك ما زال على وجهه: «سأبحث الأمر مع توم».

فقالت عابسة: «كما تشاء! لكنني أقول لك إن هذا ما كانت ستطلبه».

ـ إذا وافق توم. وستكون الجنازة صغيرة خاصة تقتصر على الأسرة فحسب.

فهزت رأسها قائلة: «هذا ليس ما كانت بين لترغب فيه أيضاً».

هذه المرة بدا عليه الغيظ. على أي حال، بدا من لهجتها اللاذعة أنها لا تشعر بأي حزن على شقيقتها.

ـ عفواً، ولكن لا يمكن أن تكوني أنت الحكم في ذلك! لم تكن علاقتك بأختك علاقة حميمة.

هذا اتهام منه؟ بادلته نظرته القاسية، فهي لا تدين له بأي إيضاح حول العلاقة المعقدة التي ربطتها بأختها.

ـ ربما لا، لكنني أعرف موقفها من الجنائز. في جنازة أمي شعرت بالحزن لأن عدد المودّعين كان قليلاً، وأقسمت على أن يحضر جنازتها المئات.. كانت في ذلك الحين في الخامسة عشرة فقط..

سكتت فجأة، وابتلعت غصة في حلقها، مصممة على تمالك نفسها أمامه.

ثم تابعت تقول: «لكنني أتصور أن هذه هي مشيئتها، إلا إذا أصبحت بين فجأة من النوع الإنطوائي الخجول».

فلوى درايتن شفتيه: «لا، هذا لم يحصل، ولكنني لم أفكر إلا بتوم عندما رتبت أمر الجنازة!».

فأجابت: «وأنا أفكر بأختي!».

تخليا عن هدنتهما غير المريحة وأخذا يتبادلان النظرات العدائية، فقال لها فجأة: «وأنا الذي أدفع الثمن!».

فأجابته: «أنت حقير، يا كارليزل!».

عبس لحظة ثم واجهها بقوله: «وأنت أكثر النساء اللاتي عرفتهن قساوة».

جرحها كلامه، فما من امرأة تحب أن توصف بالقساوة. وعلى أيّ حال، تحسن كاس تمالك الأعصاب، فقالت: «ما ألطف هذا القول منك!».

ـ لم أقصد المجاملة.

فقالت: «أعرف هذا».

وعادا يحدقان ببعضهما البعض. وساد بينهما الغضب للحظة، لكنه ما لبث أن تحوّل إلى فضول عندما أخذ كل منهما يتساءل عن سبب اتخاذه ذاك الموقف العدائي.

وحوّلت هي نظراتها أولاً، قائلة: «سأوصلك إلى الباب».

ونهضت فجأة فتبعها. وفي الردهة مدّ الإثنان، في الوقت نفسه، يديهما إلى معطفه فحصل احتكاك بينهما، وكان هو أول من تمالك نفسه فوضع يده على ذراعها يثبّتها.

كان هذا كل شيء. لكن مكان لمسته بقي يحرقها، فتراجعت وكأنها هوجمت بعنف.

قال بصوت متوتر: «لم أكن أقصد أن أؤذيك!».

فقالت غاضبة بعد أن فقدت أعصابها: «بل أردت ذلك».

لعل بين كانت محقّة حين قالت لها إنها تتحوّل إلى عانس متوترة. وقال درايتن وهو يفكر في بين أيضاً: «هذا غير صحيح طبعاً! كانت أختك تقول دوماً إنك لا تخافين شيئاً ولا تهتمين بشيء».

كادت كاس تسمع أختها تقول هذه الكلمات.

أغمضت عينيها وترجّع في رأسها صدى تلك الكلمات. كان الكلام

قاسياً وغير صحيح أبداً.

وراح هو يراقبها، في البدء بتجرّد، ثم رآه.. رأى الألم محفوراً على وجهها الرائع الجمال. عادت تلك الفتاة التي عرفها لفترة قصيرة.. الفتاة التي تشعر وتضحك وتحب. ورقّ قلبه على الفور حين رفعت يدها إلى فمها بألم بالغ، فسارع يقول: «آسف، ما كان عليّ أن أقول هذا.. إنه لا..».

فهزت رأسها قبل أن يكمل حديثه، وقالت: «هذا لا يهم».

لا فائدة، على أيّ حال، فما قاله ذكّرها بملاحظة وجهتها لها بين. آلمها صدى صوت أختها ولم تعد تتمالك نفسها، فاغرورقت عيناها بالدموع، وكادت تسيل على خديها. بعد كل ما عانته في السنوات الماضية من مشاق الدراسة والتدريب المهني، شعرت بأنها ستنهار لأن شقيقتها توفّيت. لن تفتقدها لمجرد فترة من الزمن، فهي لن تعود أبداً إلى حياتها، مثيرة للجنون حيناً، وساحرة ظريفة حيناً آخر، وضعيفة للغاية في عيني كاس وحدها.

ـ عليّ أن..

ولم تستطع أن تكمل حديثها. حاولت جاهدة أن تتمالك نفسها وإذ همت بالعودة أمسك بذراعها وقال: «إصغي إليّ يا كاس، كنت أكذب. ثم أنك على صواب، فأنا حقير!».

وفكرت كاس، وقد أثّر فيها كلامه، بأنه ليس حقيراً تماماً، وقالت متلعثمة: «ها.. هذا غير.. مهم. أنا.. أنا..».

وأغمضت عينيها بشدة، لكن ذلك لم يحل دون تسرّب الدموع من بين أجفانها.

وخرجت من بين شفتيه لعنة خافتة.

حاولت أن تعود إلى غرفة الجلوس، لكنه أمسكها بشدة، فدفعته بعيداً عنها. وعندما لم تستطع كبح شهقاتها، وتركها تنفّس حزنها، لم يبد عليها أي قوة. وضربته مرة أخرى قبل أن تتهاوى فجأة بين ذراعيه وهي تشهق باكية بشكل يثير الشفقة.

بقيت تبكي، ووجهها مدفون في كتفه، فيما أمسكها بين ذراعيه. وبدا

لحظة أن تقاربهما هذا طبيعي. لكن عندما نفدت دموعها وهدأت شهقاتها، شعرت أنّ الأمر مربك للغاية، وكأنه أول عناق لمراهقة مع فتى. أو لأن ذلك لم يكن عناقهما الأول، قالت وهي تبعد رأسها عنه: «أنا بخير الآن».

ـ حسناً.

كان ينظر إليها لكنها أبت أن ترفع بصرها لتنظر إليه.

قالت ووجهها إزاء كتفه: «إذهب من فضلك، عليّ أن أجري بعض الاتصالات، كما عليّ أن أخبر بعض الأشخاص».

فأدهشها حين قال: «يمكنني القيام بذلك!».

فقالت متصلبة: «لا، لا، شكراً».

فقال دون إلحاح: «لا بأس، إسمعي.. أنا آسف حقاً..».

وضغط على ذراعها، فقالت له: «لا بأس صدقني. كانت بين تقول أسوأ من ذلك في وجهي. وهذا ما ذكّرني بها وأثار حزني، وهذا كل شيء.. أما بالنسبة إلى الجنازة..».

ـ إذا وافق توم، سنجعل الجنازة عامة.

ـ أنت على صواب طبعاً، فالأمر يعود إليه. لكن ما أردت قوله هو أنه لا يمكنني الذهاب إلى الجنازة.

هتف وقد بدت الصدمة على وجهه: «ماذا؟».

فكررت وهو ينزل يده عن ذراعها: «لا أستطيع الذهاب!».

شعرت أنها عاجزة عن الوقوف إلى جانب الضريح لكي تدفن أختها، فالأمر صعب للغاية رغم أن علاقتهما لم تكن جيدة، وقالت تعتذر: «سأكون مشغولة طوال الأسبوع».

حدّق درايتن كارليزل بها وقال: «من المؤكد أن بإمكان السوبر ماركت أن يستغني عنك ليوم واحد».

فنظرت إليه مذهولة، ثم أدركت أن أختها لم تخبره بتغييرها مهنتها، ولم تخبره بذلك.

قالت بصراحة جريئة: «لا بأس، لن أذهب. هل أنت راضٍ؟».

هز درايتن رأسه، فقد وجد فرقاً شاسعاً بين كاس باركر هذه وتلك التي كانت تبكي، منذ دقائق قليلة، بين ذراعيه.

ـ لا أفهمك، كما أنني لم أفهمك قط من قبل.

فقالت: «وهل حاولت ذلك؟».

انطلقت هذه الكلمات من فمها قبل أن تستطيع تداركها. سمعت فيها مرارة نفسها، فخافت أن تفشي المزيد من مكنونات قلبها. استدارت مبتعدة عنه وفتحت الباب وانتظرت أن يخرج.

فهم الإشارة، فارتدى معطفه ثم سار نحو الباب، قال عندما اقترب منها: «لم نحل المشكلة بعد، سأتصل بك غداً».

هزت كتفيها وكأنها تقول له، كما تشاء، ربما غداً ستكون مستعدة للقتال. أما الليلة فكل ما تريده هو أن يرحل قبل أن تنهار أمامه مرة أخرى.

استقرت عيناه عليها لحظة أطول.. عيناه الزرقاوان الثاقبتان، ثم خرج، الحمد لله!

أغلقت الباب خلفه ثم استندت إليه، بعد أن استنزفت طاقتها كلها.

فرد آخر من عائلتها مات. الأب، ثم الأم، ثم الأخت، من الصعب ألاّ تعتبر ذلك أمراً موجهاً إليها شخصياً. لماذا أنا بالذات؟ لماذا نحن؟ لماذا بين؟

اتجهت إلى الخزانة، وأخرجت «ألبوم» صور الأسرة. كان يحتوي على صور للعائلة قبل أن يموت الأب من مرض السرطان. كانت كاس في الخامسة عشرة وبين في التاسعة. كانت الصور تحمل ذكريات لعطل سعيدة وحفلات أعياد ميلاد، ومسرحيات مدرسية.

لطالما بعثت هذه الصور الحزن في قلب كاس. والآن، وهي تقلّب صفحات الألبوم، وترى بين، ملاكاً أشقر، تبتسم للكاميرا، جالسة في حضن الآخرين، عابسة أحياناً، تملكها شعور بالغ بالوحشة. وراحت تبكي، وقد ساورها الألم لفقدان كل أفراد عائلتها، أختها الصغيرة الحبيبة، وأبيها القوي الماهر وأمها الجميلة الضاحكة.. وبكت على نفسها هي، تلك

الصبية الصغيرة التي لم تكن تعرف حجم المآسي التي تنتظرها.

وفيما بعد تملكها الشعور بالذنب، ولكنها عادت وسألت نفسها، ماذا كان عليها أن تفعل؟ وبدا لها أنها لا تفهم الجواب.

عندما التحقت بالجامعة لتدرس الطب، أملت أن تتمكن من توفير حياة أفضل لأمها الأرملة. وعندما ماتت أمها في حادث سير، تمنّت لو لم تترك المنزل قط!

الشيء الوحيد الذي منعها من الانهيار حينذاك، هو أختها. فقد احتضنت بين وخففت عنها، وكانتا تحبان بعضهما البعض للغاية.

وعصر اليوم الذي دُفنت فيه أمهما، اكتشفت كاس أن بين لم تعد تلك الفتاة الصغيرة التي عرفتها. فقد جاء فتىً أقرب إلى كاس من حيث العمر ليصطحب بين. وقفت كاس تتأمل القرط والوشم والجينز المقطب، مذعورة، وهي ترى بين تختطف معطفاً ثم تختفي قبل أن تتمكن هي من القيام بشيء.

عندما عادت بين أخيراً في الثانية صباحاً، كانت كاس قد صممت على ألاّ تترك بين تعيش هذه الحياة مع شبان لا رجاء فيهم، وهكذا انتقلت مع أختها إلى هذا المنزل الصغير القائم في لندن. احتجت بين في البداية، وبقيت واجمة عابسة مدة أسبوعين، ثم ما لبثت أن اتخذت أصدقاء في مدرستها الجديدة، فتنفست كاس الصعداء، بارتياح.

لكن ارتياحها لم يدم طويلاً، إذ راحت ترتاد النوادي الليلية والحانات.. تاركة كاس في البيت تتساءل كيف يمكنها أن تضبط سلوك أختها.

مرت كل تلك السنوات من دون أن تجد كاس الجواب الصحيح، وهي تشعر الآن أنها لو وجدت الجواب الصحيح لاستطاعت أن تنقذ أختها من براثن الموت.

***

٢ ـ لعنة المال

أدرك النوم كاس، في ساعات الصباح الأولى، فبقيت نائمة حتى السابعة صباحاً، حين أيقظها جرس الهاتف. طلب منها أن تحل مكان أحد الأطباء في المستشفى، فوافقت على الفور، فأي شيء أفضل من قضاء النهار تفكر في موت أختها.

لم تخبر كاس أحداً بالأمر. ولم يلاحظ أحد أن الدكتورة باركر بكت طوال الليل حتى نامت، فقد بدا وجهها جاداً هادئاً.

لم يتبدّد حزنها بالطبع، لكنها أرجأت التفكير فيه إلى ما بعد العمل في قسم الطوارئ، وما لبث أن تملّكها في اللحظة التي دخلت فيها إلى البيت.

استطاعت أن تتصل بعمة أبيها وابنة عم أمها، وهما القريبتان الوحيدتان. وأثارت كلمات ابنة عم أمها المعزية، مشاعرها. وعندما رن جرس الهاتف لم ترفع السماعة، إذ كانت تذرف دموعاً حارقة.

وبعد مرور وقت طويل، تذكرت ذلك الاتصال، فرفعت السماعة لتجد أن المتكلم ترك لها رسالة. في الواقع، وجدت ثلاث رسائل، كل واحدة منها أكثر اختصاراً من الأخرى، من درايتن كارليزل يطلب منها الاتصال به على هاتفه الخلوي للتحدث عن ترتيبات الجنازة.

بدا واضحاً من لهجته، أنه لم يعد يشعر بأيّ تعاطف نحوها. وحدثت نفسها بأن ذلك لا يهمها، فهي لا تريد اهتمامه، لأنه لم يفهمها قط أو يفهم نوع العلاقة التي كانت تربطها بـ «بين». إنه لا يعرف شيئاً عن الماضي الذي ربط بينهما كثيراً، قبل أن يعود ليفرقهما.

أرادت بين أن تأخذ سرّها معها وتدفنه بعمق بحيث لا يعثر عليه أحد. وكانت لكاس يد في ذلك، لأنها تعرف السر وساعدتها على إخفائه. وهي ستحتفظ به أيضاً. لكن بين لم تكن واثقة من قدرتها على ذلك، فهي لم تكن تحافظ على أسرار الآخرين، لذا افترضت أن كاس مثلها.. وهكذا بقيت خائفة من اليوم الذي تفشي فيه ذاك السر، فأبقتها بعيدة عنها، وعن أسرة كارليزل وعن حياتها الجديدة بأكملها.

وقد رضيت كاس هذا، لأنها شعرت أنها مسؤولة جزئياً عن الماضي. لو ضبطت سلوك بين بشكل أفضل، لما حملت هذه وهي في السادسة عشرة من عمرها. وقد مرّت خمسة أشهر قبل أن تدرك كاس ذلك، إلى أن رأتها يوماً تبكي كفتاة صغيرة. وقد أخفت كاس رعبها، هي الأخرى، وخففت عنها بدلاً من أن تعنفها، إلى أن هدأت بين، وتملكتها الحماسة للحياة التي تنمو في أحشائها، فأخذت تتحدث عن الإسم الذي يمكن أن تطلقه على المولود، والثياب الغالية الثمن التي ستشتريها له.

لكن هذا لم يحدث قط، فقد واجه المولود الحياة في غرفة نوم في الطابق العلوي، وأخذ يشهق مناضلاً في سبيلها. حاولت كاس جهدها لتنفخ الحياة في ذلك الجسد الصغير المكتمل التكوين، لكنها لم تفلح. بقيت بين فارغة اليدين محطمة.

أما كاس، فقد دفعها ضميرها إلى ترك دراستها لكي تتفرغ لمساعدة أختها على اجتياز هذه المحنة المؤلمة. ومضت فترة شعرت خلالها أن أختها ستبقى محطمة، غير قادرة على نسيان ألمها. لكنها، مع مرور الوقت، خرجت من هذه المحنة أصلب عوداً.

قررت بين أن تصبح عارضة أزياء، فبذلت كاس جهدها لكي تساعدها. فهذا أفضل من أن تبقى بين أسيرة البيت، من دون أمل.

وهكذا باعت كتبها وسمّاعتها الطبية، ظناً منها أنها لن تعود إلى دراسة الطب مطلقاً، وأنفقت مالاً كثيراً لمساعدة بين. لكن أحلام بين في أن تصبح عارضة أزياء مشهورة لم تتحقق، فطولها أقل من الطول المطلوب، كما أنها

تحف قواماً من أن تكون فاتنة. استطاعت تأدية عروض أزياء محددة أكثرها للمراهقات، وما لبثت أن استقرت في وظيفة علاقات عامة في معارض تجارية.

ومن خلال عملها هذا تعرفت إلى أسرة «كارليزل». ومنذ اليوم الأول، تحوّل موضوع الزواج من ثري من مزحة، إلى رسالة في الحياة. كان الحديث، في البداية، عن درايتن كارليزل إلى أن قررت بين أنه تقليدي متزمت، فتحوّلت عنه إلى شقيقة توم.

تملك كاس الذعر لهذا التصرف، لكن بين بدت سعيدة، ولم تتوقع لها كاس النجاح، فهي في السابعة عشرة وشفافة، بالنسبة لأي رجل ذي بصيرة.

رمت شباكها على تومسون كارليزل. وهو يكبرها بعدة سنوات لكنه لم يكن ناضجاً بما فيه الكفاية.

هل أحبت بين توم كارليزل حقاً؟ لم تتأكد كاس من ذلك قط. فقد جاءت إليها تلوّح، بانتصار، بخاتم خطبة ماسي ثمين. كان توم في حوالى الرابعة والعشرين من العمر، يملك شقة في مكان ما من «ساوث كن» ويعمل كموظف في أعمال الأسرة الهندسية. لكن ما جذبها إليها هو سيارته المرسيدس الرياضية وحسابه المصرفي.

في الواقع، لم تتعرف كاس إلى توم أولاً بل إلى درايتن، فقد ظهر على عتبة الباب ذات مساء، بقامته الفارعة، وتهذيبه. كان يخطف الأنفاس بوسامته وكأنه من كوكب آخر. تملك كاس شعور غريب حين رأته، لكن هذا الشعور سرعان ما غاب وراء الحواجز الطبيعية التي تقيمها كاس حولها.

كانت في مزاج سيء، وزاد من سوء مزاجها حضوره المفاجيء. كانت قد أمضت النهار في تنظيف البيت وهي قلقة على بين التي أمضت الليل خارج البيت، كما كان عليها أن تقصد عملها المسائي بصفتها مفتشة في سوبر ماركت محلي، بعد أن هجرت دراستها.

ـ نعم؟

كان في صوتها بعض الخشونة نحو هذا الغريب، فأجاب بأدب: «لا أدري إذا كان العنوان صحيحاً، لكنني أبحث عن أسرة باركر».

فكررت سؤالها: «نعم؟».

تأملها للحظة ثم قال: «هل أنت أخت بينيلوب؟».

بدت الدهشة على وجهه. لعله كان يتوقع فتاة نحيلة شقراء ترتدي تنورة قصيرة مثل بين، فإذا به يرى فتاة طويلة تلبس مئزراً من النايلون.

سألته وقد تملكتها الدهشة هي أيضاً: «هل أنت توم؟».

فقد بدا هذا الرجل أكثر نضجاً من أن يناسب بين.

فهز رأسه: «أعرفك بنفسي، أنا درايتن كارليزل، شقيق توم، وأنت..؟».

تملكها الإرتباك لعدم تعرّفها إلى توم حتى الساعة، فأجابت فجأة: «أنا كاس».

ـ كاس؟ هذا مختصر لإسم..؟

فقالت بشيء من السخرية: «كاستلفورد».

فكرر هازلاً: «كاستلفورد؟».

ـ إنها مدينة في الشمال.

فقال بجفاء: «هذا أمر غريب».

لم تستطع كاس مقاومة التحدي، فقالت: «واسم درايتن، أليس كذلك؟».

فقال عابساً: «إنه إسم عائلة، كانت أمي من أسرة درايتن».

فتظاهرت بالاهتمام: «حقاً؟».

حدق إليها للحظة، وبدت عيناه الزرقاوان باردتين وصلبتين وذكيتين.

ـ هل بينيلوب في الداخل؟

ـ لا، مع الأسف. هل تريدني أن أخبرها بشيء؟

ـ أتتوقعين عودتها قريباً؟

كيف تجيب عن هذا؟ فقدت كاس منذ وقت طويل أي سيطرة على تحركات أختها. وهزت كتفيها.

فقال وقد بان في صوته شيء من التصلّب: «في هذه الحالة، ربّما يجدر بنا أنا وأنت، أن نتحدث في بعض الأمور».

أراد التكلّم عن زواج أخيه من فتاة تافهة. وأدركت كاس أن أسرته لن تكون مسرورة بذاك الزواج.

نظرت إلى ساعتها، وقالت: «اعذرني يا سيد كارليزل، هل يمكن أن نؤجل حديثنا إلى وقت آخر؟ عليّ أن أكون في عملي بعد ربع ساعة».

فسألها وهي تغلق الباب خلفها: «هل مكان عملك قريب؟».

ـ على بعد ميل.

كان عليها أن تركض لتصل في الوقت المحدد.

ـ سأوصلك بسيارتي.

شعرت بالإغراء لحظة لكنها قالت: «لا بأس! قد أتأخر قليلاً، لكنني لا أريد إزعاجك..».

ـ ليس في الأمر إزعاج.

وتبعها إلى الرصيف حيث رأت سيارة رياضية فارهة. بقيت ملامحها هادئة من دون تأثر، خلافاً لبين التي كانت تتأثر بالسيارات السريعة الفارهة.

بدا لها أميناً، لبقاً، فدخلت السيارة ووجدت نفسها تغوص في المقعد الجلدي الوثير. أعطته عنوان المكان، ورغم أنه لم يكن بعيداً، إلا أن الزحام أخّرهما.

في غمرة الزحام، سألها: «ما رأيك بالعلاقة التي تربطهما ببعضهما»؟

ـ صدقني لا أعرف، فأنا لم أتعرف إلى أخيك.

كانت كاس تعلم أن بين لن تسامحها أبداً إذا أعطت رأيها بالموضوع.

ـ لا بد أن لديك بعض الشكوك، ما زالت أختك في السابعة عشرة من العمر. إنها صغيرة على الزواج، أليس كذلك؟

كان بإمكان كاس أن توافقه بهدوء، لكنها لم تشأ أن تريحه، خصوصاً وهي تعلم أن بين خرجت معه أيضاً.

- لكنها ليست صغيرة على الخروج مع أشخاص في الثلاثين من العمر.

ضاقت عيناه ونظر إليها: «أتقصدينني بهذا؟».

- ومن غيرك؟

- خرجنا مرة واحدة فقط.

- وإن يكن، المهم أنكما خرجتما معاً!

بدت السخرية البالغة في جوابها، فقال بغيظ: «لكن موعدي معها لم يكن غرامياً. أقامت الشركة معرضاً في شارع «إيرلس كورت»، فدعوت المشتركين في المعرض على العشاء في اليوم الأخير. بعدها، غادر الجميع وبقيت مع أختك. لكن، عندما اكتشفت كم هي صغيرة، أرسلتها بسيارة أجرة».

التفتت كاس إليه فرأت الجد على ملامحه، وتملكها شعور بالغ بالارتياح، وإن لم تكن واثقة تماماً من السبب.

وتابع يقول: «وأنا أراها يافعة للإقدام على خطوة كبيرة كالزواج».

- أشكرك لاهتمامك بها، أنت شهم!

نظر إليها ليرى إن كانت تعني ما تقوله. لكن السخرية البادية على شفتيها أنبأته بالعكس، فقال معترفاً: «لا بأس! من الواضح أن كلامي لمصلحة أخي».

فقالت بشيء من التهور: «أو لرصيده في المصرف!».

- أنت تعلمين عن رصيده، أليس كذلك؟

تمنت كاس لو تنشق الأرض لتبتلعها، فهي لم تتعرف إلى أخيه بعد، ومع ذلك تعرف وضعه المالي.

هزّت كتفيها وكأن الأمر مجرد تكهنات: «أنتم الأغنياء لديكم جميعاً أرصدة في المصارف، أليس كذلك؟».

انعطف إلى اليسار، فتملكها الارتياح لوصولها.

توجّه نحو موقف سيارات السوبر ماركت، فقفزت من السيارة وهي تتمتم مبتعدة: «شكراً!».

لكنه لم يكن من الذين يستسلمون بسهولة. وإذا بيده تمسك بذراعها حال وصولها إلى الباب الخارجي.

فقالت باحتجاج: «أرجوك أتركني، لقد تأخرت!».

لكنه لم يهتم بكلامها وهو يواصل حديثه: «إذن، الرصيد في المصرف هو ما جعل توم صيداً مرغوباً فيه، أليس كذلك؟».

فقالت وهي تحاول عبثاً نفض يده عن ذراعها: «أنا لم أقل هذا!».

فشدّد قبضته على كتفها وقال: «لكن هذا ما تعتقدينه!».

بدا الغضب عليها وقالت: «عفواً، ولكن هل تعارفنا من قبل؟».

فقطب جبينه قائلاً: «لا أظن».

- إذاً، ما الذي يجعلك تعرف ما أفكر فيه؟

سكت لحظة عاقداً حاجبيه، وانتظرت جوابه الذي أدهشها: «أنت على حق، فقد كنت متغطرساً. ربما يمكنك أن تشرحي لي شعورك؟».

لكن كاس لا يمكنها ذلك، وجعلها وفاؤها لأختها تغفل هذا السؤال وتقول بدلاً منه: «لا أدري كم عمر أخيك..».

- خمس وعشرون سنة.

- لكنني أتصور أنه سيفعل ما يريده تماماً مثل أختي.

- ليس بالضرورة. لن يفعل ذلك إذا فكر في الوصي على رصيده.

- وهل هو أنت؟

- نعم، أنا.

لم يهمها الأمر، لكنها تساءلت إن كانت أختها تعلم ذلك.

وتابع يقول: «لعل توم متحفظ بالنسبة إلى هذا الموضوع، لكني أشعر بأن على الانسان أن يكون صريحاً في هذه الأمور».

وابتسم وكأنهما توصلا إلى بعض التفاهم، لكن الابتسامة لم تصل قط إلى عينيه الباردتين.

فقالت لتتأكد: «لنرَ إن فهمت جيداً ما تريده. تريدني أن أخبر بين الليلة أنك تتحكم بأموال توم، بينما تجلس أنت راجياً أن تنقل حبها إلى شخص آخر، أليس كذلك؟».

ونظرت إليه متحدية، لكن ضحكته الجافة أدهشتها هذه المرة.

ـ نعم، لا أدري إذا ما سمعت هذا القول: (أكثر مهارة من أن يناسب مصلحتك؟).

ـ نعم، لكنني لا أتأثر بهذه الأقوال.. فأنا لا أهتم بالرجال الذين يفتقدون الشعور بالأمان.

ضحك مرة أخرى، فبدا لها من الثقة بالنفس بحيث لم يشعر بالإهانة التي وجهتها إليه.

راحت عيناه تتفحصان شعرها المعقود إلى الخلف وسألها باهتمام شخصي هذه المرة: «أي نوع من الرجال يهمك إذن؟».

لم تشأ أن تجاريه في هذه المواضيع: «ولمَ تسأل؟».

فهز كتفيه قائلاً: «أتساءل إن كان ثمة رجل في حياتك».

لم تشأ أن تخبره الحقيقة المحزنة، فقالت مدعية: «رجال عدة، إنهم يقفون في الصف».

نظر إلى السوبر ماركت حيث الجموع تحتشد، ثم ضحك قائلاً: «من الأفضل أن أدعك الآن. متى تنهين عملك؟».

ـ في الثامنة.. لماذا؟

ـ أفكر في دعوتك إلى شراب.

وابتسم ببطء، وتساءلت عن عدد النساء اللاتي أوقعتهن هذه الابتسامة في شراكه.

شعرت بالإغراء في لحظة جنونية، وفكرت في أنها قد تجد في رفقته متعة تضاهي تلك التي تجدها في تحجيمه. ثم تذكرت، فقالت: «لا أستطيع!».

فقال: «أو ربما لا تريدين».

لكنها لا تستطيع حقاً، فهي تعمل ليلاً في مطعم صغير. ولم تشأ أن

توضح له الأمور فهزت كتفيها قائلة: «فسّر الأمور كما تشاء».

لكنه لم يتحرك، وتمتم يقول: «في وقت آخر إذن».

افترضت أن ذلك مجرد كلام، إلى أن التقت أعينهما فأنبأتها الرسائل الصامتة المتبادلة أنه يعني ما يقول. سيكون هناك وقت آخر، وهو سيحرص على ذلك.

إزاء ذلك الوعد، أو التهديد، جمدت في مكانها للحظة، وشعرت بالانجذاب نحوه بدلاً من النفور، ثم ابتعدت عن ناظريه.

وعزّت نفسها بفكرة أنه من غير المحتمل أن تلتقيه مرة أخرى.

أخبرت بين بالحديث الذي دار بينهما، إلا أن بين لم تعره اهتماماً. بل دفعتها ثقتها بنفسها إلى اعتبار تدخل درايتن مبنياً على الغيرة، لأنه أول من خرج معها، واعتقدت أنه ما زال يهتم بها.

حاولت كاس أن تقنعها منطقياً، وأن تلفت نظرها إلى أن رجلاً مثل درايتن كارليزل، ذكي وناضج وجذاب، يطلب في المرأة أكثر من مجرد مراهقة. لكن بين اتهمتها بالغيرة، هي أيضاً، لأنه ما كان ليلتفت إليها أبداً.

في العادة، تترك كاس النقاش مع أختها عندما يصل إلى هذا المستوى من التفاهة. لكنها هذه المرة استمرت في الشجار معها وأعلمتها أن درايتن فعل أكثر من النظر إليها.. ودعاها للخروج معه.

أسكت قولها هذا بين للحظة، وراحت تحدق بكاس باستغراب، قبل أن تضحك ساخرة مدّعية بأن درايتن يلهو وبما أنها فكرت بهذا الاحتمال، أثر كلام أختها فيها، فتركت الموضوع غاضبة.

وأدركت بين أنها تجاوزت الحد، فجاءت فيما بعد، تعتذر من شقيقتها، وبررت موقفها بأنها على علم بسمعة درايتن كارليزل السيئة وأن فكرة أن تكون كاس إحدى ضحاياه لم تعجبها. بدت مخلصة في حديثها، فتقبلت كاس تفسيرها هذا، وهكذا تصالحتا.

لم تتشاجرا مرة أخرى، لكنها فقدت أختها منذ اليوم الذي تزوجت فيه توم كارليزل أيّ منذ ثلاث سنوات.

كانت كاس، حينذاك، قد عادت إلى دراستها، وتدين للمصرف بمبلغ طائل بالرغم من عملها في مطعم. كان بإمكانها بالطبع أن تطلب نقوداً من بين، وقد عرضت عليها هذه الأخيرة المال مرة أو اثنتين، لكن المشكلة أن كاس لم تكن تعتبر تلك النقود نقود أختها. فهي أموال كارليزل، وكانت تخاف أن يكتشف درايتن كارليزل، يوماً ما، أنها قبلت إحساناً. وهذا لا يعني أن بين كانت تأتي على ذكر شقيق زوجها، فهي لم تتطرق إلى هذا الموضوع مع كاس منذ ذلك الحين.

أفاقت كاس فجأة من تأملاتها، على صوت الهاتف الملحّ. وعرفت المتصل قبل أن ترفع السماعة، لكنها كانت مستعدة لمواجهته، فقد جعلت ذكريات الماضي قلبها يقسو.

قال باختصار: «معك درايتن».

فكانت أكثر اختصاراً: «نعم».

ـ لقد تأجلت الجنازة إلى يوم الخميس، فقد أكّد توم رغبة أختك بحرق جثتها.

ـ حسناً!

فقال بنفس اللهجة المتحفظة: «هل ستحضرين؟».

كانت لهجته آمرة، فلربما أصرت على رفضها الذهاب. لكن الواجب والشعور بالذنب لم يبارحاها منذ ليلة أمس، فقالت ببساطة: «نعم، سأحضر».

فبدا الرضى في صوته، وقال: «حسناً».

ـ كيف حال توم؟

تردد لحظة ثم قال: «مصدوم ومضطرب».

وأرادت أن تتابع طرح الأسئلة، أن تسأل عن الطفلة، لكنها منعت نفسها. وتابع يقول: «في الواقع، توم متلهف لرؤيتك. إذا أمكنك البقاء بعد الجنازة سوف.. سوف أكون شاكراً».

عبست كاس بعد أن رأت في تهذيبه هذا تصنعاً. ولكن لماذا؟

ـ آسفة، لدي عمل عند المساء.

وكان هذا صحيحاً.

ـ فهمت. قال توم لي إنك تعملين الآن في المستشفى عاملة تنظيفات.

عاملة تنظيفات؟ ستة أعوام من الدراسة والاجتهاد والمشقة تُمحى بكلمة واحدة؟ شكراً يا بين، لماذا لم تخبرهم عنها؟ لكنها لن توضح له.

ـ في أي مستشفى؟

ـ لماذا؟

أخذت تتساءل عما إذا كان يشك في أنها تعمل في مستشفى. وقال موضحاً: «فكرت في أن أوصلك إلى المستشفى بسيارتي بعد الجنازة، إذا كنت مستعدة للبقاء بعد الجنازة والحديث مع توم».

قطبت كاس جبينها ثانية. إذا كان توم يريد أن يتحدث معها، فلما لم يتصل بها بنفسه؟ ولماذا يتطوع أخوه الأكبر للقيام بذلك؟

لديها ذكريات مقلقة للغاية عن أسرة آل كارليزل في منزلها الريفي في «تورت دين».

وقالت: «لا أدري، لا يمكنني أن أتأخر!».

ـ لا أظن أن أحداً سينتقدك إذا تأخرت قليلاً يوم جنازة أختك الوحيدة، أليس كذلك؟

من المؤكد أن أحداً لن ينتقدها، ولكنها لم تخبر أحداً بالأمر، فهي لا تريد أن يشاركها أحد أحزانها.

ـ حسناً، أعتقد أنك مخطىء.

وتابعت تقول: «لن يقبل رئيسي أن أتخلّف عن عملي. وبما أنّ عقد عملي شارف على النهاية، سأحتاج إلى شهادة توصية جيدة».

فقال وقد ساورته الشكوك: «عقد عمل؟ ما هو عملك بالضبط؟».

كان هذا سؤالاً مباشراً لا يحتمل المراوغة، فقالت بشيء من الزهو: «أنا طبيبة».

توقّعت أن يحدث ردها بعض التأثير، لكنه افترض أنها تهزأ منه، فأجابها: «حسناً».

تباً له، أتراه لم يصدّق ما قالته له؟

وتابع: «أؤكد لك أنك ستصلين إلى عملك في الوقت المناسب، يمكنني أن أرسل لك سيارة في الصباح لتحضرك».

فقالت ببرودة: «هذا ليس ضرورياً، فقد قلت إنني سأحضر».

ـ لم أشك في ذلك، وإنما حاولت أن أساعدك، وأعفيك من المواصلات ومتاعبها.

فكرت في أن هذا معقول، لكنها عادت فتذكرت آخر مرة حاول فيها أن يساعدها. كانت هناك دوماً دوافع لشهامته.

فقالت: «شكراً على أيّ حال. لكنني أستطيع تدبّر أمري في القطار، فأنا معتادة على ذلك. قد يدهشك أن تعلم أنّ قسماً كبيراً من الناس يعتمد على المواصلات العامة».

فهتف قائلاً: «آه، نعم! يا إلهي، كيف يعيش النصف الآخر من الشعب».

لم يكن جاداً بالطبع، بل أراد أن يمازحها. بعدئذ، أضاف بلهجة ساخرة: «وهل تسمحين لي أن أحضرك من محطة القطار؟».

ـ لا، فقد يستنزف هذا الجهد الكثير من طاقتك، يا دراي.

ـ الجهد؟

ـ نعم، جهدك في تكلّف اللطف والشهامة معي.

مضت لحظة صمت ضحك بعدها درايتن وقال: «في الحقيقة، نعم. أراك ما زلت تحبين الحديث الجاف يا كاسي».

كاسي؟ شعرت أنّ تدليلها أصاب وتراً حساساً. وربما شجعه على هذا زلة لسانها وهي تدعوه دراي منذ لحظات. وذكّرها هذا بالوقت الذي كانا فيه قريبين من بعضهما البعض، فسألته: «وما الخطأ في ذلك؟».

ـ لا شيء على الإطلاق.

ثم خفض صوته وقال بلهجة ماكرة: «لماذا يا كاس لا نتوقف عن التظاهر بأننا غريبان؟».

إنها مجرد كلمات لكن تأثيرها كان قوياً. ومع أنها في السادسة والعشرين من العمر، إلا أن وجهها احمرّ كتلميذة مدرسة.

تنفست بعمق وهي تذكّر نفسها بأنها لا تريده أن يراها تحمر خجلاً. وسيسمع صوتها فقط، بارداً كالثلج وهي تجيب: «ومن الذي يتظاهر؟ لا تعتقد أنني اعتبرتك يوماً مقرّباً منّي!».

ها قد قالتها أخيراً. كشفت أوراقها كلها ولم يعد له سلطة عليها الآن.

تلا ذلك صمت، وكأنها صدمته، لكنه ما لبث أن عاد وقال: «لا تخافي، لقد بددت أنت وأختك الأوهام التي تملكتني».

لكن كاس تتذكر أن الأوهام تملكتها هي، فقد كانت حمقاء لكن بين هي التي جعلتها تتعقّل.

وقال بلهجة ساخرة جداً: «مع ذلك، عليّ أن أشعر بالغرور لأنك ما زلت تتذكرين (لقاءنا)».

وتابع يقول: «على الرغم من مواعيدك الكثيرة التي تلت ذلك من دون شك».

مواعيد كثيرة؟ لم يكن هناك سوى واحد مع طالب طب وقد انتهى بكارثة مطلقة. ولكن أتريده أن يعرف تفاصيل حياتها الخاصة؟

وبدلاً من ذلك قالت له: «لديّ سجلّ. وأنت فيه تحت الحرف (م. . .) أي مخيّب للأمل».

كان هذا تحقيراً له، فلماذا ضحك؟

قال بغطرسته المعهودة: «هل أنت واثقة من أن حرف (م. . .) هذا لا يعني (مثير)؟ فهذا هو الحرف الذي أضعك تحته».

احمر وجه كاس مرة أخرى، وارتسمت في مخيّلتها ذكرياتها معه، وتساءلت عما جعلها تتلاعب بالحقيقة.

سكتت فجأة، ثم قالت: «والآن، بعد أن قمنا برحلة الذكريات تلك، هلاّ عدنا إلى حديثنا؟ أعني دفن أختي».

ـ طبعاً، اتصلي بي فيما بعد لإبلاغي بموعد وصول القطار، وسأرسل

سيارة إلى المحطة. سأوصي بإعداد أكاليل الزهور غداً، يمكنني أن أرتب أمر إعداد واحد باسمك إذا شئت.

ـ لا، سأفعل أنا ذلك.

لم ترد أن يكون له فضلٌ عليها. فقال بكرم مدهش: «لا بأس. هل هناك ترنيمة تريدينها أثناء طقوس الجنازة؟».

كانت كاس تعرف الترانيم التي تفضلها أختها، ولكن أياً منها لم يكن صالحاً لجديّة المناسبة.

ـ في الواقع، لا أعرف ترنيمة يمكن عزفها في جنازة. لَمَ لا تسأل توم علّه يتذكر ما كانت تحبه؟

بدا عليه بعض التردد قبل أن يجيب مراوغاً: «اهتمام توم مركز على الطفلة حالياً».

الطفلة، ابنة أختها، بإمكان كاس أن تسأله عن حالها الآن، وسيكون هذا امراً طبيعياً.

بدا جلياً أنه ينتظر سؤالها، وعندما لم تسأله، تطوّع بالقول: «لقد خرجت من الحاضنة، وهي على ما يرام الآن!».

فقالت بصوت محايد، مصممة على أن تبقى كذلك: «هذا جيّد».

فسألها بصراحة: «أتودّين زيارتها حين تأتين؟».

فأجابت متجنبة الرفض الصريح: «لن يكون لدي الوقت الكافي».

لكنه شعر برفضها فقال: «لقد نسيت. فقد قالت بين مرة إنك لا تحبين الأطفال».

عبست كاس لسماعها كلماته، لماذا قالت بين ذلك؟ فهذا غير صحيح على الإطلاق. ومن دون أن تنكر ذلك، قالت: «ولا أظنك تحبهم أنت أيضاً».

وعندما أدركت أن الموضوع أصبح شخصياً مرة أخرى، غيّرت بقولها: «ها هو رنين جهاز التنبيه من المستشفى. إذا لم يعد لديك ما تقوله عليّ أن أستعمل الهاتف للاستعلام».

بدا واضحاً أنه يتساءل عن السبب الذي يجعلها تحتاج إلى هذا الشيء.

وعندما وجدت كاس أن الجهاز ما زال معلقاً بحزام بنطلونها، فتحته، ثم ألصقته بسماعة الهاتف لكي يسمع صفيره السريع، وقالت: «إنه جهاز التنبيه وداعاً!».

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم رفعتها مرة أخرى احتياطاً فيما لو عاود الإتصال، وبهذا يجده مشغولاً ما يثبّت ما اختلقته من عذر لتنهي المكالمة.

ليس عذر بل كذبة، إنها كذبة أخرى تضيفها إلى سلسلة الأكاذيب التي أخبرت بها أسرة كارليزل. كم تتمنى الآن لو ضغطت على بين لكي تعترف لتوم بأنها ولدت طفلها الأول. لو فعلت ذلك، لبقيت أختها حية للآن.

لكن بين أقنعت كاس بأنها إذا فضحت سرها، فلن تتزوج. ومع أن أختها كانت صغيرة على الزواج، إلا أن ذلك أفضل من أن تمضي لياليها متسكعة بين النوادي الليلية. وعندما أحضرت بين أخيراً توم كارليزل إلى البيت ليتعرف إلى أختها، قامت كاس بدورها بشكل رائع، فرحبت بحرارة بذلك الفتى الذي بدا ساذجاً بالنسبة إلى أخيه. وبذلت جهدها لكي تدّعي، بأن أختها، هي تلك الفتاة الحلوة البريئة كما تبدو، ولم يكن هذا صعباً عليها لأنها في الأعماق تعتقد أن أختها كذلك.

ما زالت هناك أزمة أخيرة. أمضت بين، آخر ليلة قبل الزفاف مع كاس في فندق فخم، في ضيافة آل كارليزل. كانت معنويات بين، في البداية، عالية. ولكن، حين حان وقت النوم، أخذت تبكي. لم تكن واثقة من أنها تحب توم كارليزل كما ينبغي عليها أن تحبه، إنه لطيف معها، وقد اشترى لها كل ما أرادت، ولكن هل هذا كافٍ؟

وانفطر قلب كاس حينذاك. فقد أوشكت على تقبل فكرة هذا الزواج، وإذا بهذه القنبلة تنفجر. وكان عليها أن توافق بين، فقالت: «معك حق، شعورك هذا لا يكفي».

لكن هذا لم يكن ما أرادت بين أن تسمعه، فردّت باكية: «وما أدراك؟

فأنت لم يسبق لك أن عشت وضعي، لأن ما من أحد طلب منك الزواج».

كانت هذه عادة بين أثناء المراحل الصعبة. وقد تعوّدت كاس على مثل هذه الكلمات حتى لم تعد تؤثر بها، فقالت بلطف: «لن أناقشك يا بين، أنت على حق. ربما لست مرغوبة، لكنني أفضل أن أبقى عانساً على أن أعيش، يوماً بعد يوم، مع رجل لا أحبه أو أحترمه».

فقالت بين بصوت مفجوع: «ومن قال إنني لا أحبه؟ هذا ما كنت أتوقعه، أن تحاولي إقناعي بأن أترك هذا الزواج».

نظرت كاس إلى أختها مستغربة وقالت: «لا، هذا غير صحيح، فأنا أريد لك الأفضل، وهذا كل ما في الأمر! هذا ما أردته لك دوماً».

كان صوت كاس بالغ اللطف والرقة فبدا الخجل لحظة على بين وقالت: «أعرف ذلك، وأظن أنني لم أفهمك يوماً».

فقالت كاس مازحة: «لست درساً لكي تفهميني؟».

لم تكن هذه مزحة بارعة، لكنهما ضحكتا، وخففت هذه المزحة من التوتر.

ثم قالت بين ببساطة: «أخبريني ماذا عليّ أن أفعل يا أختي».

ولكن لم يكن لدى كاس جواب سحري، فقالت: «لا أستطيع يا بين. أتمنى لو أستطيع، أنت وحدك تعرفين شعورك نحو توم..».

فقالت بين بإصرار: «أنا أحبه، ولكن بعد دراي. إنه يبدو بطل ملاكمة من الوزن الخفيف».

فتأوهت كاس: «آه، يا بين. لا تقولي لي إنك معجبة بأخيه الأكبر».

ـ لا، طبعاً، ولكنه أعجب بي في البداية، أنا أعرف ذلك. ليتني لم أخبره أنني في السادسة عشرة..

وقاطعتها كاس حينذاك قائلة: «انتظري. لا بد أنك كنت في السابعة عشرة والنصف حينذاك».

فأومأت بين قائلة: «نعم، لكنني ظننت أنني كلما كنت أصغر، كلما كان هذا أفضل. فأكثر الرجال الكبار في السن يفضلون الصغيرات».

لم تقل كاس شيئاً، لكنها ارتجفت في داخلها، أي نوع من الرجال كانت بين تخرج معهم؟

وتابعت بين وهي تدير عينيها ناظرة إلى أعلى: «... ما عداه هو. أتعرفين ماذا قال؟ قال لي أن أعود إليه بعد أن أبلغ الواحدة والعشرين، ثم قبلني على جبيني وكأنني طفلة في الثالثة، وأرسلني إلى بيتي في سيارة أجرة».

فقالت كاس: «يا له من رجل فظيع».

لكنها في داخلها، كانت معجبة بنزاهته.

ـ كما أنه متسلّط ومجرم.. فهو لم يدع توم يأخذ أكثر من ثلاثة أسابيع كإجازة لشهر العسل.

استطاعت كاس أن تظهر تعاطفها وهي تقول: «حقاً؟».

رأت كاس أن ثلاثة أسابيع مدة كافية، لكنها وجدت تحقير بين لدرايتن كارليزل فكرة جيدة.

وأضافت بين تقول: «المشكلة هي أنه جذاب للغاية».

لم تشأ كاس أن تناقشها في ذلك، لأنها الحقيقة. ولكن هل ينبغي لأختها أن تفكر في ذلك بينما ستتزوج أخاه في اليوم التالي؟

رأت بين ما ارتسم على ملامح أختها فأسرعت تطمئنها: «لا تخافي. فأنا أرى العديد من الرجال جذابين، لكن هذا لا يعني أنني أريد أن أقيم علاقة معهم».

فقالت كاس مدفوعة بواجب تنبيهها: «لكن أولئك الرجال لن يكونوا من الأقرباء مثل درايتن».

ـ عندئذ لست الشخص الذي سيشعر بالأسف، بل دراي.

لم تكن كاس واثقة مما إذا كانت بين تمزح، لكنها ضحكت معها. على كل حال، بدا واضحاً أنه، رغم كل شكوكها، ستصبح بين السيدة توم كارليزل.

سألتها كاس: «هل أفهم من هذا أن العرس مستمر؟».

فأجابت بابتسامة متكلفة: «ما رأيك؟ كل ذلك المال. . سأكون مجنونة إذا لم أمضِ بهذا الزواج».

فقالت كاس مؤنبة: «بين!».

لكن بين تابعت الضحك وهي تندس في الفراش.

بقيت كاس مستيقظة طويلاً، فقد أراحت بين ضميرها بالحديث إلى كاس، وجاء دور كاس الآن لتقلق.

استيقظت بين في الصباح متألقة مبتهجة، لا تنفك عن الثرثرة عن العرس وشهر العسل والمنزل الذي سيشترونه ذات يوم. وفيما بعد، سارت في ممر الكنيسة الرائعة، تتبعها مجموعة من أقارب توم وصديقة بين الحميمة كيلي.

طلبت بين من كاس أن تكون وصيفتها. لكن الارتياح بدا عليها حين اعتذرت كاس، مبررة رفضها بأنها لا تحب اللون الليلكي، لون ثوب وصيفة العروس.

جلست كاس في الصف الأمامي، مزهوة بجمال أختها وقد هدأت شكوكها إزاء الحب والتفاني الظاهرين على وجه توم كارليزل.

حتى دراي كارليزل بدا وكأنه يبارك هذا الزواج. كان يرتدي بذلة الصباح الرسمية، ويقف بجانب أخيه بصفته شاهد العريس. وبقي جاداً إلى أن انتهت طقوس الزفاف، عندئذ عانق أخاه باسماً.

وحاولت كاس أن تختفي بين الجموع خارج الكنيسة، حتى وقف أمامها دراي كارليزل وقال: «كنت أبحث عنك في كل مكان».

لم يبد لها كلامه مجرد تحية مهذبة، بل رأت في كلامه أبعد من ذلك. ولم تعرف لما شعرت نحوه، مرة أخرى، بتلك الجاذبية الحادة؟ لكنها حاولت أن تخفي إعجابها به، وهي تجيبه: «وتسرني رؤيتك مرة أخرى أنا أيضاً».

ارتفع حاجباه بشيء من التهكم، ثم أمسك بذراعها يجرها: «هيا بنا».

سألته وهما يسيران بين الجموع: «إلى أين؟».

ـ نلتقط الصور.

بدا واضحاً أنها غير متحمسة للقيام بذلك، فرمقها بنظرة استغراب قائلاً: «ألا تريدين أن تكوني ضمن سجل هذه المناسبة السعيدة؟».

فقالت تعتذر: «لا، ليس تماماً، فأنا أخجل قليلاً من الكاميرا».

فطمأنها: «إنها مجرد صورتين للجمع كله».

بدا واضحاً أن بين سعيدة بكل لحظة، إذ راحت تعبث أمام الكاميرا بشكل لا يناسب العروس تقريباً.

فقال دراي كارليزل بصوت منخفض: «حسناً، من الواضح أن تحفظك هذا ليس وراثياً».

فهمت كاس من كلامه أنه ينتقد تصرف بين، فأجابت بشيء من الحدة: «بين تستمتع بعرسها، ما الخطأ في ذلك؟».

ـ لا شيء، كما أظن. كنت فقط أعلّق على مدى اختلافكما.

فقالت بجفاء: «حسناً، لو أنني صارخة الجمال، لحاولت أن أتباهى بجمالي مثلها».

فسألها درايتن: «أحقاً؟».

وأخذ يتأملها لحظة. شعر أسود، عينان خضراوان، ملامح وجه كلاسيكية، وفم كبير ممتلئ.

وتابع يقول: «لا، لا أظن ذلك. قد لا يكون جمالك صارخاً كجمال أختك، لكن الكثير من الرجال يرونك أكثر جاذبية، وأظنك تعلمين هذا، ولكنك لا تهتمين».

كان على صواب، فهي لا تريد أن يقدّرها الآخرون من أجل شكلها.

فقالت له باستخفاف: «هل استنتجت كل هذا في دقيقتين؟».

ـ ليس تماماً، فقد كانت بين تتحدث عنك.

كان بإمكانها أن تتصور الانطباع الذي تعطيه أختها عنها: جادة، متحفظة، مكبوتة. . .

لم تستطع طرح المزيد من الأسئلة، إذ علا صوت المصور فجأة: «الأقارب المباشرون، رجاء».

ـ أعتقد أنه حان دورنا.

ثم أضاف عابساً: «أنا واثق من أن بينيلوب تريدك أن تكوني في الصورة بصفتك أقرب الأقربين إليها».

لم تكن كاس مقتنعة بفكرته هذه، لذا لم تتقدم أي خطوة، فأمسك بيدها وجرّها خلفه.

جاء الاحتكاك سريعاً لكن ردة فعلها لم تكن كذلك. وبعد أن أوقفها بجانب أختها وذكّرها، بسخرية رقيقة، أن تبتسم، بقيت وقتاً طويلاً تشعر بحرارة وقوة أصابعه. وقررت أن تهرب بعد أن تؤخذ الصورة وتتمنى السعادة لأختها، وتستقلّ سيارة أجرة إلى أقرب قطار يوصلها إلى المدينة. لكن حماقتها جعلتها تبقى، وتتجاهل كل ما يمليه عليها المنطق، لتتأكد مما شعرت به عندما أمسك بيدها.

افترضت، حينذاك، أنه حقيقي. لكنها لم تستطع أن تدعوه بأكثر من حرف الحاء، وهو الحرف الأول من كلمة تتألف من حرفين، فالشعور الذي خالجها تجاه درايتن شعور انجذاب وعذاب.

حمدت الله على أن ذاك الشعور انتهى ومضى، خلال أسابيع عدة. لكنه تركها ضعيفة هشة مدة طويلة.

* * *

٣ ـ مغامرة فاشلة

لم تتصل كاس بمنزل أسرة كارليزل لكي يرسلوا سيارة، بل استأجرت بنفسها سيارة أجرة أوصلتها إلى محرقة الجثث في الوقت المناسب.

وقفت الأسرة في الصف الأمامي، ورآها درايتن كارليزل وهي تدخل، فأشار إليها بأن تنضم إليهم. لكنها تسللت إلى كرسي جلست عليه لأنها لم تكن تعتبر نفسها من الأسرة..

كانت الطقوس كئيبة للغاية، تحدّث الكاهن عن بين الزوجة المخلصة وربة المنزل الأم الشابة، ثم تبع ذلك ترانيم حزينة كانت بين لتضحك بصوت خافت، لو أنها سمعتها.

وجعل التفكير في بين الحقيقية عيني كاس تغرورقان بالدموع، كما جعلتها تشعر بغصة، ولو بدأت بالبكاء لما استطاعت أن تتوقف.

قليلات هن النساء اللواتي يتوفين عند الولادة هذه الأيام، قليلة هي الحالات المشابهة لحالة بين. فقدت بين جنينها الأول بسبب رحم مختل التكوين. وكان من المحتمل أن تفقد أي حمل آخر، وتفقد حياتها معه. وقد عرفت كل هذا، لكنها اختارت أن تخوض تلك التجربة.

لم تكن واثقة من أن الطقوس انتهت. لكنها شعرت بحاجة إلى تنشق الهواء، فتركت كرسيها واتجهت نحو الباب. وما إن أصبحت في الخارج، حتى شعرت بالحاجة إلى الهرب نهائياً، وأوشكت أن تفعل ذلك إلاّ أنها شعرت بخطوات تلحق بها.

استغنى درايتن كارليزل عن كل التحيات وتبعها ليسألها: «إلى أين

تذهبين بحق الجحيم؟».

ـ أعود إلى لندن.

ـ لا، لن تذهبي. ليس الآن! هل نسيت وعدك بأن تتحدثي إلى توم؟

وأمسكها بذراعها، فواجهته قائلة: «لا أعرف ما الذي تتوقعه، فأنا لا أعرف أخاك جيداً، كما أنني لست ماهرة في التعزية».

أطلق ضحكة قصيرة خشنة: «يمكنني أن أصدق هذا، ولكن توم لا يريد منك كلمات التعزية، بل يظنك تعلمين سبب موت بين».

فقطبت جبينها: «ألم يخبره الأطباء؟».

ـ لقد فعلوا بالمصطلحات الطبية.

ـ هل يريدني أن أشرحها له؟

نظر إليها متسائلاً عما إذا كانت تتعمّد الغباء، ثم أجاب بفروغ صبر: «لا أظن ذلك، مهما كان عملك في ذلك المستشفى، أشك في قدرتك على القيام بذلك».

فقالت: «وما أدراك؟ ما الذي تعرفه عني حقاً؟ سأخبرك بما..».

فقاطعها: «لا شيء، لا أعلم عنك شيئاً، أعترف بذلك. لكن هذا الأمر ليس عنك وعني، إنه عن توم، ويبدو أنه يعتقد أنك حبل النجاة بالنسبة إليه. لذا، ليحتفظ كل منّا برأيه بالآخر».

وتابع وهو يمسك بذراعها ليمنعها من الذهاب: «أما الآن، فعليك أن تعودي معي إلى بيتنا وتتحدثي إلى توم، إنه واثق من أنك ستقولين الحقيقة».

ـ لا يمكنك أن تجبرني على القيام بذلك.

فقال صاراً على أسنانه: «بل يمكنني ذلك».

عندما انضما مجدّداً إلى بقية المشيّعين، أضاف بصوت كالفحيح: «هؤلاء الناس أصدقاء أختك، فحاولي أن تتصرفي أمامهم، كفتاة فقدت أختها».

شعرت كاس بوجهها يحمر غضباً، فهو يعاملها وكأنها تلميذة مدرسة متمردة، من دون مراعاة الحزن والألم اللذين يتملكانها لفقدان أختها.

عندما تركها أخيراً، أخذت تفكر في الهرب مرة أخرى. وإذا بها ترى توم واقفاً مع خاله، فصعقت لمنظره الذي منعها من الحركة. فقد ارتسمت على جبينه خطوط عميقة جعلته يبدو أكبر سناً.

حدق إليها للحظات، ثم ما لبث أن عرفها فهرع إليها قائلاً: «كاس. الحمد لله أنك جئت، أنا بحاجة للتحدث إليك، علي أن أسألك عن بعض الأمور. هل ستعودين معنا إلى المنزل؟».

كانت عيناه ضارعتين وقد ملأهما اليأس إلى حد جعلها تقول: «نعم، إذا شئت».

فقبض على يديها شاكراً: «شكراً. وستأخذينها، أليس كذلك؟».

فلم تفهم وسألته: «عفواً؟ ماذا تعني..؟».

فقاطعهما دراي: «توم، لا يمكننا الحديث عن هذا الأمر، سنعود إلى المنزل..».

ثم سألها: «هل ستأتين؟».

فأومأت ببطء، لكن الشك بقي على وجهه. ولم يلح عليها أكثر، فقد كان همه الأول إبعاد توم المضطرب من بين الناس.

أخذت كاس تحدق في أثرهما، الحيرة تتملكها بشأن كلمات توم الأخيرة (وستأخذينها). افترضت أنه يقصد بين أختها. رماد جثتها، ولكن لماذا؟ لماذا يريدها أن تفعل ذلك إلا إذا اكتشف الحقيقة؟ ورجت أن تكون مخطئة.

وضع الخال يده على ذراعها برفق، فتركته يصطحبها نحو سيارة قديمة.

قال بصوت أجش: «يا للأسف. كانت فتاة جميلة.. مسكين توم».

قالت كاس: «يبدو حزيناً للغاية».

فأجاب: «حزين، تماماً، ومع ذلك، عندما يتحدث إليك...».

لم تقل شيئاً، ولم تفهم ما الذي يُفترض أن تخبر توم به لتهدئ من روعه.

قال لها بعطف: «وكيف حالك أنت؟».

لقد شعر بفجيعتها ووحشتها، وأحست هي بأن اهتمامه صادق، لكن

مشاعرها أكثر تعقيداً من أن تستطيع التعبير عنها. فهي تشعر بالغضب والحزن والشفقة، والذنب ومشاعر أخرى عليها أن تكتمها وتنتظر إلى أن يمرّ هذا النهار التعس.

وأجابته: «أحاول تقبل الموضوع».

فأومأ باستحسان: «هذا كل ما يمكن للمرء أن يفعله. هل ستمضين الليلة هنا؟».

ـ للأسف، لا أستطيع، أما زلت تسكن في كوخ الغابة ذاك؟

فأجاب: «نعم. مكان مثالي لشخص واحد. لا تحسدي دراي على تجواله في أنحاء بيته الكبير ذاك».

فسألته: «ألم يتزوج بعد؟».

فأجاب: «لا، ومن غير المحتمل أن يتزوج. إنه يفضل التغيير».

ـ ليس على علاقة جادة بأحد إذن.

ـ كان على علاقة جادة، منذ سنة بفتاة رائعة تدعى صوفي بالمر ليون، فتاة رائعة من أسرة جيدة. بدا وكأن الأمر سينتهي بينهما بالزواج.

حدثت كاس نفسها بأن هذا لا يهمها، ومع ذلك سألته: «وماذا حدث بعد ذلك؟».

فتنهد الخال وقال: «تملّكه السأم، وهكذا تركته وتزوجت رجلاً آخر..».

تحولت السيارة لتدخل بوابة منزل كارليزل الريفي الذي وجدته أكبر مما كانت تتذكره.

لم تخفِ كاس ذعرها من واجب تبادل الأحاديث المهذبة وتلقي كلمات العزاء من أناس لا تعرفهم، فقالت: «أريد أن أتحدث قليلاً مع توم ثم أذهب».

ـ ولكن لا بد.. حسناً، إذا كان هذا ما تريدين.. سأرى ما يقوله دراي..

بدا عليه الحيرة والارتباك، لكن كاس لم تكن تهتم برأي دراي.. لم تشأ

أن تختلط بالناس، فقالت للخال تشارلز: «سأذهب إلى المنزل الصيفي».

ثم ابتعدت قبل أن يستطيع أحد منعها.

يقع المنزل الصيفي على ضفاف النهر وهو مبني من الزجاج والخشب. بدا قديماً، لكنه لا يزال يستعمل وهو مؤثث بكراسٍ وموائد من الخيزران.

لم تدفع كاس الباب لتدخل إلى المنزل، بل جلست عند أعلى الدرجات المؤدية إلى الرصيف المحاذي للنهر.

كانت الشمس حارة بالنسبة إلى هذا الوقت من السنة، فخلعت سترة بذلتها الصوفية، ورفعت كمي قميصها.

أغمضت عينيها إزاء وهج الشمس، وراحت تفكر في أول مرة زارت فيها هذا المنزل. كان يوماً رائعاً كهذا اليوم، عندما تزوجت أختها من أسرة كارليزل.

أتراه كان أسعد أيام بين؟ ربما، فقد بدت متألقة في ثوبها الحريري الأبيض، فيما ألقت كاس جانباً أي قلق ساورها لكي تشارك أختها الجميلة فرحتها.

تعرّفت إلى العمات والخالات والأقارب وإلى مونيكا زوجة الأب، ثم بدأت الفرقة بالعزف، فاتجهت كل الأعين إلى العروسين وهما يدوران في أنحاء الحلبة عاشقين رائعي الجمال يظهران حبهما للعالم بأجمعه.

تبع العروسين إلى حلبة الرقص درايتن كارليزل وكيلي صديقة العروس ووصيفتها الأولى، التي بدا أنها تحاول إغواء الأخ الأكبر.

لم يبدِ دراي أي إعجاب بها، فلا شك أنه اعتاد على أن تتحرش النساء به.

لم تنتبه كاس إلى نظراتها التي تعقّبت ذاك الزوج الراقص، إلى أن قال لها الخال: «هذه الرقصة هي مجرد واجب فلا تقلقي».

فتملكها اضطراب غير عادي وقالت: «لم أكن.. لا أفهم ما تعنيه!».

ـ لكنني ظننت.. عندما طلب مني دراي أن..

وسكت إزاء نظراتها المرتبكة ثم قال: «آسف.. لقد أخطأت الفهم».

وراح يحدّثها عن أيام خدمته في البحرية، لكنه قطع حديثه فجأة هاتفاً: «أهذا أنت..».

لم تكن بحاجة إلى أن تلتفت لكي تعرف أنه دراي كارليزل، وعجبت كيف استطاع أن يسلخ نفسه عن تلك الفتاة المنمقة المزينة.

دار حول المائدة، وهو يحيّي من لم يسبق له تحيته من الأقارب. بدا واضحاً أن دراي كارليزل شخصية محبوبة من أسرته، كما من النساء.

قدم له الخال تشارلز مقعده، لكن دراي هز رأسه وقال: «عليّ أن أراقص نسيبتي الجديدة أولاً».

ظنت كاس أنه يعني أختها بين، لكنه التفت إليها وتأبط ذراعها قائلاً: «هل تسمحين لي؟».

ولم ينتظر جوابها بل جرّها إلى حلبة الرقص، حيث أخذا يرقصان الڤالس.

مضت لحظة أو اثنتان تخبط فيهما قلب كاس بين ضلوعها إلى أن ضمها دراي إليه.

ـ هل لديك مانع؟ ظننتك بحاجة إلى من ينقذك.

ـ ممّن؟ من خالك؟ لماذا؟ هل هو زير نساء.. هو أيضاً؟

توتر فمه لهذا السؤال، وتلاشى عن وجهه الهزل.

وأخيراً أجاب: «ربما، هل يجعله ذلك أكثر أو أقل إمتاعاً؟».

بدا سؤاله وكأنه اختبار، فلم تستطع كاس منع نفسها من أن تجيب: «هذا يتوقف على ما إذا كان له صلة بملايين أسرة كارليزل».

فتمتم قائلاً: «صلة خفيفة! ربما كان عليّ أن أتركك في قبضته».

عند سماعها كلماته، رفعت حاجبيها. أتراه يعتقد حقاً أنها ستفضح نفسها بهذه السهولة لو كانت ممن تهمهن المظاهر؟

وقالت له بجفاء: «إذا ظننت أني أهتم بالأغنياء العجائز، التافهين والأغبياء، فسيخيب أملك».

شعر بالإهانة على الفور لكنه لم يتحرك، ثم ما لبث الموسيقى أن

توقفت. وحاولت أن تبتعد، لكنه قبض على ذراعها.

ـ هل هذا هو رأيك بي؟

لم يكن هذا رأيها به طبعاً. فهو ليس عجوزاً، كما أنه ليس تافهاً ولا غبياً. هذا الرجل يعرف ما يريد من الحياة، ويعرف كيف يحصل عليه.

ما جذبها إليه لم يكن المال، بل شيء آخر، جذبها دراي الرجل.

وأخيراً أجابت: «أنا لا أعرفك».

وكان هذا جواباً حيادياً حذراً. لكن نظرته إليها لم تكن كذلك، وقال بثقة مطلقة: «سوف تعرفينني!».

هل هذا وعد أم تهديد؟

قررت كاس أن تعتبر الأمر مجرد مزحة، وأرغمت نفسها على الضحك: «أشك في هذا، فنحن لا نتشارك الاهتمامات والميول نفسها».

فقال: «وهل هذه مشكلة؟».

ليس بالنسبة إليه، كما يبدو، فنادراً ما يصادف الأغنياء وذوو النفوذ المشاكل.

فأجابت بهدوء: «إنها مشكلة بالنسبة لي أنا».

وانتظرت منه أن يفلتها، لكنه شدها إليه أكثر، وشعرت بأصابعه حارة صلبة على ذراعها، ثم أزاح يده.

لم تتأخر، خصوصاً أن غريزة الدفاع عن الذات حثتها على الهرب.

وقبل أن ترحل، ألقت نظرة على الراقصين، فلم تدهش حين وقعت عيناها على دراي كارليزل، وبين ذراعيه فتاة أخرى. لكن ما أدهشها هو ذاك الشعور الفظيع الذي تملكها، وهو طبعاً سبب قوي يمنعها من التورط معه. فشعورها بتلك الغيرة عليه بعد رقصة واحد وحديث قصير، أمر مرعب.

لكنه كان ساحراً خلاباً أيضاً، وعندما عاد يحدق إليها عبر الغرفة المزدحمة، مضى وقت طويل قبل أن يحوّل أي منهما نظراته عن الآخر. لكنها فعلت ذلك أخيراً، وغادرت المكان.

ولو أن القدر لم يتدخل، لهربت، لكن القدر ليس عادلاً، ولا مفر

منه.

تسللت خارجة من الباب الخلفي، فرأت صبياً يلوّح بيده. ومضت لحظة قبل أن تدرك أنه يلوّح لها، ثم أخذ يركض نحوها.

أسرعت تلاقيه.. وزادت سرعتها عندما رأت ملابسه المبللة.. ثم أخذت تصغي إليه وهو يخبرها بقصة ويلهث محاولاً التقاط أنفاسه.

تلا ذلك ذعر كبير وراحت تركض إلى النهر، فطار الحذاء وتمزق الثوب وهي تحاول أن تسبح نحو تلك الذراعين اللتين تتخبطان في الماء.

وأوشكت على الغرق هي نفسها، لكن ذراعين قويتين انتشلتاها إلى الأعلى. وصاح صوت مخترقاً الهدير في أذنيها: «الصبي؟ هل هو في هذه الأنحاء؟».

لم تستطع سوى أن تومىء، لكن هذا كان كافياً.

وأحاطت بها ذراعان أخريان تساعدانها على الوصول إلى رصيف خشبي، بينما انطلق الأول ليبحث عن الغريق.

ومرت الثواني والدقائق من دون أمل، إلى أن تملكها ارتياح غامر عندما برز رأسان إلى سطح الماء.

وقال الرجل الواقف بجانبها على الرصيف: «الحمد لله».

فنظرت إليه بدهشة، وقد كادت تنسى وجوده. فقال: «بالمناسبة، أنا سيمون كارليزل».

فأومأت، ثم عادت تنظر إلى درايتن كارليزل الذي عاد نحوهم جاراً الصبي المنهك على ظهره.

عملوا إلى إخراج الجسد من الماء، الذي بدا دون حياة.

سأل سيمون متشككاً: «ماذا علينا أن نفعل؟».

لكن كاس كانت قد بدأت بالإسعافات الأولية، التي تطلبت منها وقتاً. أخذ الرجلان ينظران إليها بصمت إلى أن أخذ الصبي يغمغم ويناوه، ومن ثم عاد إلى وعيه.

سألها درايتن: «هل تساعد حالته على أخذه إلى المنزل؟».

فقالت وأسنانها تصطك: «أظن.. أظن ذلك!».

فقال سيمون وهو يرتدي ملابسه التي خلعها عند ضفة النهر: «سآخذه أنا».

كان الرجلان قد خلعا ملابسهما قبل أن يغوصا في الماء. أما كاس فغاصت بملابسها وها هي الآن تدفع الثمن وهي ترتجف في ثوبها القطني المبتل. وبينما سار سيمون والصبي بين ذراعيه، قال درايتن لكاس وهو يناولها قميصه: «إخلعي ثوبك والبسي هذا».

ترددت في البدء، لكنها عادت وأدركت أن الوقت ليس للاحتشام. وسارت بجانبه حافية وهي تزرر القميص تاركة ملابسها الممزقة على الأرض خلفها.

قال لها: «أنت تعرجين».

فقالت من دون اهتمام: «لا بأس».

ولكن بدا واضحاً أن هذا غير صحيح، فقد راح ألم حاد يخزها في قدمها. قال وهو يوقفها بيده وينادي ابن عمه: «أنت تنزفين، تابع طريقك إلى البيت يا سيمون وسنلحق بك».

ساعدها على الجلوس على جذع شجرة، ثم أخذ يفحص قدمها بدقة فأجفلت.

قال وهو يقف: «لا يمكنك السير على هذه لأن ثمة شيئاً في داخلها».

لم تجد كاس أمامها خياراً آخر فوقفت. وشعرت هذه المرة بألم مبرح، فاضطرت إلى العض على شفتها كيلا تصرخ ألماً.

ـ تستحقين علامة كاملة على الصبر على المكاره.. لا على التعقل.. إلزمي مكانك.

ورفعها عن الأرض قبل أن تصرخ باحتجاج. لكنها عادت فوضعت يديها حول رقبته العارية، وهي تنظر إلى أي مكان ما عدا ذلك الوجه الوسيم القريب من وجهها.

كان يحملها من دون مشقة، ومع ذلك بقيت تشعر أنها عبء ثقيل. لقد

أنقذ الصبي الغريق وها هو الآن ينقذها فتمتمت: «أنا.. أنا شاكرة لك ما فعلت، يا درايتن، لو أنك لم تأت..».

فهز كتفيه وقال: «كان سيأتي شخص آخر.. على أيّ حال، أنت الشجاعة».

فقالت غير مصدقة: «أنا؟ هذا غير صحيح! كنت غبية، فقد حاولت أن أسبح مسافة طويلة».

ـ لكنك شجاعة، فقد حاولت إنقاذه رغم أنّك لا تجيدين السباحة.

أقرّت كاس بهذا، شاعرة بأنها أقل حماقة مما كانت تظن. لكن هذا لم يغير نظرتها إلى الأمور. فهو البطل، كما أن منظره وهو يبذل جهده لانتشال الغريق من براثن الموت، كان مؤثراً.

اختلست نظرة إلى وجهه تعيد تقييمه، فرأت في وجهه القوة بدلاً من الغطرسة. وعندما لاحظ نظرتها إليه وقرأ ما في ذهنها، قال: «هل هذا يمنحني فرصة أخرى؟».

أوشكت أن تسأله فرصة لماذا، لكنها خافت من أن يؤدي هذا السؤال إلى أشياء أخرى. فقالت بدلاً من ذلك: «لم أكن أعلم أنك حصلت على فرصة أولى».

أطلق ضحكة عميقة جعلت يدها تنزلق إلى حيث الشعر على صدره، فأسرعت تعيدها إلى كتفه.

وقال: «ظننت أنني حصلت عليها ثم عدت فنسفتها عندما تركتني في باحة الرقص فرحت أطارد الفتيات».

فسألته: «أحقاً فعلت؟».

فأومأ مجيباً وقال: «بعد أن تخلّصت منهن، ولم أجد أثراً لك، رأيت وليام ابن سيمون يعاني من نوبة ربو حادة».

تذكرت كاس ذلك الصبي الأول الذي كان يلهث بين الكلمات، لكنها كانت مشغولة عنه بالصبي الآخر فلم تسأله عن حاله، بل قالت له: «لم أدرك حالته، هل هو بخير الآن؟».

لم يبد القلق الشديد على درايتن: «أظن ذلك، نوبات الربو عنده نفسية أكثر منها جسدية. لقد استدعيت أمه لتهتم به بينما ذهبنا، أنا وسيمون، لنتحقق من حكايته عن انقلاب الزورق وعن المرأة التي ترتدي ثوباً أزرق».

فقالت شاكرة: «لقد جئتما، وهذا هو المهم».

فأجابها باسماً: «كان الأمر يستحق العناء».

كان يعني بذلك وجوده معها، وشعرت، بنظراته تلفحها، فحوّلت وجهها بعيداً عنه. لن تقوى على مواجهة هذا الشخص.

صعدا إلى المنزل حيث خرجت زوجة سيمون من باب صغير، وقد بدت عليها الدهشة لمنظرهما.

ثم قالت: «استدعى سيمون سيارة إسعاف، وقد أرسلني لأبحث عن السيد ستيوارت وزوجته إذ يبدو أن الصبي إبنهما».

فقال لها دراي: «كوني حذرة. لا حاجة لبث الذعر فيهما أو الاضطراب في الحفلة، ربما سيصبح على ما يرام».

فقالت: «حسناً، رغم أنه يثير اضطراباً بالغاً في المكان، فقد تقيأ على إحدى البُسُط، وهو الآن يبكي كالطفل و...».

فقاطعها إزاء لهجتها غير المتعاطفة قائلاً: «من يعتني به؟».

ـ سيمون والسيدة هندرسن، أرجو ألاّ يلوم أحد وليام لما حدث، فهو متأثر ومضطرب جداً. ويبدو أن ابن ستيوارت توسل إليه لكي يرافقه إلى النهر، وهناك تعمد أن يهز الزورق حتى..

فعاد دراي يقاطعها: «نعم، لا بأس يا كاميلا، يمكننا أن نتحدث عن كل هذا فيما بعد. إذا أمكنك استدعاء والديه، سأكون شاكراً».

لم يبدُ على كاميلا كارليزل الاستياء من مقاطعته لها، فقد سارت بهدوء نحو السرادق.

تملك كاس الإضطراب لأنانية هذه المرأة، فسألته بشيء من السخط: «هل صدقت كلامها؟».

فأجاب: «وهل تحسبينني غبياً إلى هذا الحد؟».

افترضت كاس هذا، ولكن إذا كان يعلم أن سيمون أو كاميلا يكذبان، فلماذا يقبل منهما هذا؟

وأجاب على سؤالها الصامت: «لم يكن الوقت مناسباً لأجيب على كاميلا. ولكن لا تقلقي سيكون لي حديث آخر معها».

فقالت عابسة: «هذا مضحك حقاً».

وتمنت لو أنه لا يملك موهبة قراءة الأفكار المفزعة هذه، ثم قالت عندما دخلا المنزل: «يمكنك أن تنزلني على الأرض الآن».

لكنه تجاهل ما قالته وبقي يحملها.

سارا في الممر حتى وصلا إلى حمام، فأجلسها، ثم بلل منشفة بالماء الساخن قبل أن يركع بجانبها ويمسح التراب عن قدمها المصابة.

استغرق عمله هذا وقتاً، وفقدت كاس رغبتها في الجدل عندما أخذ يداعب قدمها بلمسانه، التي كانت مزيجاً رائعاً من الرقة والقوة. نظّف قدمها قبل أن يفحص الإصابة، وتمتم يقول: «لقد خفّ النزيف، لكنني واثق من أن هناك شيئاً داخل الجرح. أظن أنه من الأفضل أن أترك ذلك للطبيب.. على أيّ حال، لن يضر وضع بعض المطهرات».

نظرت إليه وهو يضع مقداراً وافراً من المطهر على قطنة، وصرفت بأسنانها لأنها تعلم أن هذا سيلذعها.

قال وهو يضع القطنة على الجرح: «اشتميني إذا شئت».

فقالت وهي تغمض عينيها: «لا تغرني!».

وعندما أنهى مسح الجرح، وتلاشى الألم، قال: «ليتني أستطيع».

وعندما رأى نظرتها الجفلى، أضاف: «وماذا عليّ أن أفعل؟».

لكي يغريها؟ أتراه يهتم بها حقاً؟ لا بد أن منظرها مزر للغاية، ومع ذلك ها هو يغريها.

قررت أن تبقى صامتة، لكن احمرار وجهها فضحها نوعاً ما، فهي تجده جذاباً.. بل بغاية الجاذبية.

ابتسم لها ببطء، وكأنه عرف ما تشعر به. ورمته بكلمات سبق

وقالتها: «وهل تحسبني غبية إلى هذا الحد؟».

فقال: «هل من المفروض أن تكوني كذلك لكي أنجح في إغرائك؟».

فأجابت: «أظن هذا. ألا تظن هذا أنت أيضاً؟».

أوشكا أن يعودا إلى الجدال، لكنه جدال سطحي، فثمة شعور مختلف يخالج كل منهما نحو الآخر.

قال بدهاء: «هل المشكلة تتعلق بالمال أم بالطبقية؟ لأن لا مشكلة لدي إذا كنت موظفة في سوبر ماركت».

رأت كاس في كلامه شيئاً من الكبرياء، قالت ساخرة: «هذا غرور منك، لعلك لا تعجبني!».

لكن بدا أنه رجل لا يتأثر بالإهانة إذ قال: «أظن ذلك، هل نجرب؟».

وتقدم إليها وهو يبتسم ثم رفعها بين ذراعيه، فتمسكت بكتفيه وقد بدا عليها الذهول وعانقها.

ما زالت تتذكر ذاك العناق الأول. كانت رائحته مزيجاً من العرق والنهر والكولونيا، رائحة الرجولة الحقة. وصدر عنها صوت هو بين الإحتجاج والتأوه فاعتبر ذلك إذعاناً، كانت مقاومتها ضعيفة، وتملكتها مشاعر عميقة فمدت يديها تتمسك بعنقه.

راح الدم يندفع إلى رأس كاس، وينبض في أوردتها، وكان الأمر أشبه بالعواطف المحمومة في الأشعار والأغاني.. لكن درايتن قطع العناق أخيراً، رغماً عنه، عندما انزلقت من بين ذراعيه فكادا يفقدان توازنهما ويسقطان أرضاً. وفي محاولته تفادي ذلك، داس على قدمها المصابة، فأخذت تتأوه بصوت عال.

ـ أنا آسف.

كان الندم في لهجته، لكن التعبير على وجهه لم يكن كذلك. فقالت تتهمه وقد عادت إلى رشدها: «لا يبدو عليك الأسف!».

فقال: «آسف.. كل ما في الأمر.. من كان يظن ذلك؟».

لو كانت كاس حمقاء لسألته عما يعنيه، لكنها لم تكن كذلك. من كان

يظن أنها محمومة المشاعر إلى هذا الحد؟ وهذا ما فاجأ كاس أيضاً.

قالت: «هذا لا يثبت شيئاً».

فأجاب وكأنه يوافقها الرأي: «لا، لا يثبت شيئاً».

لكن كاس لم تكن تريده أن يوافق. أرادت أن تتجدّد المعركة.

فقالت بتهكم: «أريد أن أطلب سيارة أجرة».

فسألها: «أين تريدين أن تذهبي؟».

ـ إلى محطة القطار.

ـ حسناً.

ودفع الباب بقدمه متجهاً إلى غرفة الجلوس الرئيسية حيث الولد الذي أنقذاه.

وضع دراي كاس على كرسي فجلست وحدها سعيدة بانصرافه عنها إلى حيث والدي الصبي.

لكن وجه كاس احمّر وهي تستمع إلى كلامه الذي أظهرها البطلة المسؤولة عن إنقاذ طفلهما. ولم تجد فرصة للكلام قبل أن تصل سيارة الإسعاف.

حالما انطلقت سيارة الإسعاف مع أسرة الصبي، حمل دراي كاس بين ذراعيه فأخذت تحتج بشكل سخيف قائلة إنها ليست بحاجة لأن تستحم.

قال وهو يصعد بها السلم: «أحقاً؟ لا حاجة إلى الاستحمام بعد الغوص في مياه نهر التايمز الملوّثة».

فقالت باستياء: «وأظنك تتخيّل أن رائحة عطر «ريكو سابين» ما زالت تفوح منك».

فقال ذاكراً اسم الكولونيا التي يستعملها عادة: «بل «تيد تشارلز»، هذا في حال وصلنا إلى مرحلة تقديم هدايا عيد الميلاد لبعضنا البعض».

ها قد عاد إلى الغزل، ولم تعرف كيف تواجهه. لم تجد من الحكمة أن ترد عليه بالمثل، فقد سبق أن عانقها.

فقالت أخيراً ساخرة: «ماذا تعطي الرجل الذي يملك كل شيء؟

الابتعاد عنه».

فقطب جبينه وقال متظاهراً بخيبة الأمل: «ما الذي يجعلك ضدنا، نحن الأغنياء؟».

فأجابت: «من أين نبدأ؟ الغطرسة؟ عدم الإحساس بالآخرين، الطمع..».

فقاطعها بجفاء: «هذا عدا عن الحروب والمجاعات والموت، ربما هذا كله بسببنا، أيضاً».

ـ ربما، لكنني أظن أنّ الغطرسة هي الأسوأ.

ـ أنت طبعاً تتكلمين بشكل غير شخصي.

ـ طبعاً!

كان يعلم أنها تعنيه هو، لكنه لم يهتم، هذه هي الغطرسة الحقيقية.

توقف الحديث بينهما حين وصلا إلى الطابق الأول، وتوجّه بها إلى الحمام حيث وجدا مدبرة المنزل تحضر الحمام.

وتساءلت كاس عما إذا كان العالم كله لاحظ أنّ رائحتها ليست عطرة.

خرجت مدبرة المنزل من الحمام حين وصلا، فلعلها تصورت أنهما يريدان الانفراد.

أجلسها على كرسي خيزران، فجلست بتحفظ تنتظر منه أن يخرج.

وأخذ يتفقّد ما هو موجود: «مناشف، صابون، شامبو. هل تحتاجين إلى شيء آخر؟».

فأجابت: «لا».

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ نعم.

ـ ربما تحتاجين إلى من يغسل لك ظهرك؟

اتسعت عيناها بحذر قبل أن ترى نظرة الهزل في عينيه، فتمتمت تقول: «لا، شكراً».

فابتسم قائلاً وهو يخرج: «يا للأسف!».

أخذت تغتسل ببطء نظراً لحالة قدمها. ومضت ساعة تقريباً قبل أن تخرج من الحمام، مرتدية روب الحمام. وإذا بها تجد مدبرة المنزل في غرفة النوم.

ابتسمت المرأة قائلة: «الطبيب في الخارج».

فقالت كاس بحيرة: «الطبيب؟».

فأجابت المرأة: «نعم، الدكتور ميكيلسن. لقد استدعاه السيد دراي، هل أدعوه للدخول؟».

فأومأت: «نعم، لا بأس».

لم ترد أن تناقشها، لئلا يحضر شخص آخر. ودخل شاب يرتدي بذلة أنيقة، فقالت له: «آسفة لإزعاجك، أرجو ألاّ أكون قد أفسدت عليك يومك».

فقال وهو يشير عليها لتجلس على السرير: «لا، أبداً».

نظرت كاس إليه بحيرة، فضحك قائلاً: «لقد دعاني دراي إلى الحفلة، بعد أن أكون إما قتلتك وإما شفيتك».

فابتسمت وسألته: «هل أنتما صديقان؟».

ـ نوعاً ما. فأنا مستشار طبي في شركات كارليزل الالكترونية. بالمناسبة، اسمي جون!

أجفلت وهو يجس الجرح، وقالت: «جون، هذا حسن».

فقال متأملاً: «الجرح سيء».

ـ أظنه بسبب الزجاج.

فوافق قائلاً: «هذا ما يبدو. حسناً، أمامنا خياران، إما أن نعالج الجرح بطريقة سهلة وإما بطريقة صعبة».

ـ وما هما؟

ـ سأحاول أن أبحث عن قطع الزجاج بينما تصرين أنت على أسنانك وتتحملين الألم.

ـ أو؟

ـ يمكنني أن أحقن قدمك بمقدار كبير من البنج، وننتظر إلى أن يأخذ مفعوله تماماً، ثم نشق الجرح لكي نتأكد من استخراج كل جسم غريب منه.

ـ وهذه هي الطريقة الأسهل؟

فضحك قائلاً: «تماماً».

ـ كم يدوم مفعول المخدر؟

ـ عدة ساعات.

راحت كاس تقلب الأمر في ذهنها.

ـ أظن أن التخدير أفضل، أليس كذلك؟

قال هذا صوت آخر. نظرت كاس من فوق كتف الطبيب فرأت دراي كارليزل، وقد عاد فارتدى ملابس رسمية، منذ متى يقف هناك؟

قالت: «أريد أن أجرب الطريقة الأولى أولاً».

ألقى عليها دراي نظرة كأنه يتساءل عما إذا كانت تتعمّد العناد، بينما انتظر الطبيب تعليمات أخرى.

وقالت تذكرهما: «أنا المريضة هنا».

فقال الطبيب وهو يبحث في حقيبته الطبية: «طبعاً».

لم يتابع دراي الجدال، بل أخذ يحملق فيها من عند الباب.

لم تشأ كاس أن تتخدر قدمها ساعات. وهكذا صرت على أسنانها وتشبثت بحافة السرير، لتمنع نفسها من الصراخ. ولكن محاولاتها باءت بالفشل، فشظايا الزجاج عميقة في الجرح.

أخذ العرق يتصبب من جبينها، فمسحه دراي، قائلاً للطبيب: «بحق الله يا جون، أعطها الإبرة، ألا تراها تتألم؟».

كان صوته أجش إلى حد الغضب، فتوقف الطبيب في الحال ورفع بصره إلى كاس، قائلاً: «ربما دراي على صواب. أنا أرى قطع الزجاج، لكنني مضطر لشق الجرح أكثر لكي أصل إليها».

فقالت: «لا بأس، إفعل ما تظنه الأفضل».

أخذت تنظر إليه وهو يعد الإبرة. وتوقعت أن ترى نظرة الانتصار في

عيني دراي بعد أن فعلت ما يريد. لكن وجهه كان خالياً من التعبير ما عدا العرق الذي راح يتصبب من جبينه، ثم خرج من الغرفة.

قال الطبيب وهو يراها تقطب جبينها: «إنه قلق فقط».

فقالت وهي تتظاهر باللامبالاة: «هذا لا يهمني! إنه شخص متقلب المزاج».

أدهشت كلماتها الطبيب، فقال: «دراي كارليزل متقلب المزاج؟ هل أنتما صديقان؟».

كان سؤاله هذا صدى لسؤالها السابق.. هل يعني أنهما حبيبان؟

فقالت بشيء من الإقتناع: «في الواقع، أنا بالكاد أعرفه».

وكان هذا صحيحاً، فهي لم تتعرف إليه منذ وقت طويل.

فقال: «هل ما زلت تشعرين بشيء؟».

في لحظة جنونية ظنت أنهما ما زالا يتحدثان في الموضوع نفسه، ثم لاحظت أنه يضغط على أسفل قدمها، فردّت: «لا، لا شيء!».

حاولت كاس ألاّ تتحرك، وهو يخرج شظايا الزجاج قبل أن ينظف الجرح ويضمده.

مكث فترة يتكلم معها، لكن الحديث لم يثر اهتمامها. فقد بقيت تفكر بدراي كارليزل، بعقلها و.. قلبها. لكنها لم تشأ الاعتراف بذلك.

***

٤ ـ خيبة أمل

بعد ذلك بثلاث سنوات، عادت كاس إلى المكان نفسه إنما لسبب مختلف. سمعت وقع أقدام تقترب منها، فالتفتت متوقعة أن ترى توم، وأجفلت لرؤية أخيه الأكبر متجهاً نحوها. كان قد خلع سترته، لكنه أبقى ربطة عنقه السوداء.

تفرّس في وجهها لحظة، وسرّت لأنها أخفت عينيها خلف نظاراتها الشمسية. لم تشأ أن يعرف أنها كانت تبكي. نهضت واقفة متجاهلة يده الممدودة ليساعدها على الوقوف، ثم نفضت الغبار عن تنورتها، وسألته: «أين توم؟».

فأجاب: «إنه في المنزل. لم يشأ أن يأتي إلى هنا».

نظرت إلى ساعتها، فوجدت أنها تجاوزت الثانية عشرة، فقالت: «حسناً، إذا أراد أن يتحدث معي، فهو يعرف أين أسكن».

طوت سترتها على ذراعها، وفاجأته بالابتعاد عنه. وعندما وصلت إلى مجموعة من الأشجار، استقرت يده على كتفها تمنعها من السير.

ـ اسمعي، إنه لا يعبث معك، إذا كان هذا ما تظنين. السبب هو البيت الصيفي هذا، لديه ذكريات محزنة فيه.

نطق الجملة الأخير ببطء.. ببطء بالغ. فسألته غير مصدقة: «أي ذكريات؟».

أرادت أن ترى مدى مهارته في اختلاق الأمور.

فقال: «هذا غير مهم!».

أحست بأنه يخفي شيئاً. . حتى ولو كانت مشاعره فقط. كانت لهجته حازمة مختصرة، رغم أن الشرايين في صدغه راحت تنبض بعنف، كما عكست نظراته الازدراء. كان يكرهها بقدر ما تكرهه.

حدّقت فيه محاولة الإفلات من قبضته وهي تقول: «وكذلك اجتماعي بتوم غير مهم بالنسبة إليّ».

اشتدت أصابعه بشكل آليّ: «لا بأس، سأخبرك الحقيقة، هل ستأتين إلى المنزل؟».

تساءلت عما إذا كان لديها خيار آخر. كان أقوى منها، وأكبر حجماً كما رأته فجأة مخيفاً، نوعاً ما.

أومأت ببطء، ثم تمنت لو أنها لم تفعل عندما قال: «اعتادت أختك أن تستقبل أحد عشاقها في البيت الصيفي، وقد عرف توم بهذا».

ابتلعت كاس ريقها بصعوبة شاعرة بالاختناق، ولم تعرف ما تقول. أرادت أن تنعته بالكاذب، لكنها لم تكن مقتنعة بذلك. وحدّث صمتها دراي بالكثير الكثير فسألها: «كنت تعلمين بهذا، أليس كذلك؟».

وكان بإمكانها أن تنكر هذا، فقالت: «لا!».

ـ ولكن هذا لم يسبب لك صدمة بالغة.

هزت كاس رأسها. كانت تعلم بالعلاقة، ولكن ليس بتفاصيلها.

وردت عليه متحدية: «هل كنت تعلم؟ هل أنت من أخبر توم؟».

فأجاب: «لا، لم أكن أعلم. هو الذي أخبرني ولكن بشكل غير مترابط وغير مفهوم، ولم أصدق هذا إلا الآن. لكنه صحيح، أليس كذلك؟».

فقالت: «لست واثقة!».

ضاقت عيناه الزرقاوان غضباً وقال: «بل أنت واثقة! ربما لم تكونا متقاربتين، لكنني أعرف أنك وأختك تحدثتما عن العلاقات التي تقيمانها».

انفرجت شفتاها باحتجاج. لعل بين افتقرت إلى الحشمة في الحديث، لكن كاس لم تكن تجاريها قط.

تابع بخشونة: «لا أعبأ بنظراتك البريئة هذه، فقد حدثتني أختك

عنك. قالت كيف تصنّفين أنواع الرجال، كل رجالك!».

فحاولت أن تفهم وسألته: «رجالي؟».

ـ هذا أمر آخر أخبرتني به. يا لها من حياة اجتماعية حافلة. إذاً ما هي مقاييس الرجولة عندك؟ البراعة؟ أم قوة العزيمة والاحتمال؟ هل هكذا تصنفين الرجال؟

هزت كاس رأسها وقالت أخيراً: «أنت تختلق كل هذا، بين لا تقول شيئاً كهذا أبداً».

فأطلق ضحكة جوفاء: «آه، بين لا تقول هذا».

تملّكها الشك لحظة. ولكن لا، ما الذي يدفع بين لإخباره بهذه الأكاذيب عنها؟

وتابع يقول، باحتقار: «طبعاً أنت لا تفعلين هذا، أليس كذلك؟ أعني تصنيفنا، فنحن نكرة. نحن موجودون فقط لاعطاء كاسندرا باركر ما يشبعها من. .».

قفزت مجفلة وكادت تفلت من قبضته وهي تصرخ قبل أن يتابع كلامه: «كفى!».

فقبض على يدها وقال: «ماذا جرى؟ ظننت أنكم، أنتم أهل الشمال، تحبون الكلام الصريح؟».

قالت وقد اضطربت مشاعرها: «أنا وأنت. . لم يكن الأمر بيننا كذلك، وأنت تعلم هذا».

فقال هازئاً: «هذا ما ظننته، وكنت حينذاك أعاني من خبل مؤقت، والحمد لله أن أختك الصغيرة أعادتني إلى رشدي».

أحست كاس بالمرارة في صوته، لكنها رفضت أن تصدق أي كلمة.

صرخت فيه قائلة: «لا أريد أن أسمع هذا».

فجذبها إليه: «بل ستسمعين. ستسمعين بقدر ما أريدك أن تسمعي!».

ـ إذهب إلى الجحيم!

ثار غضبها لغطرسته، وحاولت مرة أخرى الإفلات منه، وعندما لم

يتركها رفسته على ساقه.

شتم بصوت عال، ولم يعطها الفرصة لتكرار هجومها. إذ ردّها إلى الخلف بشدة لتلتصق بأقرب شجرة، ولوى ذراعيها حول الجذع، ولم تعد قدماها تلمسان الأرض.

توهجت عيناها الخضراوان غضباً، وحاولت أن ترفسه مرة أخرى ففشلت، وراحت تصرخ: «دعني أذهب».

أمسكها بشدة إلى أن توقفت عن القتال وأخذت تحدق إليه. لم يشأ أن تصبح المواجهة بينهما جسدية، لكنه كان قد نسي حدة طبعها.

تذكر كل شيء الآن، وهي تلتصق به إلى حد شعر بأنفاسها على وجهه، وشم رائحتها التي لا مثيل لها. المشكلة أنه تذكر كل ذلك بوضوح بالغ. تذكر أيضاً كم كان أحمق عندما تحدّث عن الحب، بينما ما كان بينهما لم يكن سوى انجذاب جسدي وما زال كذلك.

عندما انتبهت لنظراته، تحوّلت أنفاسها إلى همس.

أطلق إحدى ذراعيها، ليتمكّن من أن يمسك ذقنها بيده. أدار وجهها نحوه ولم يدعها تنظر بعيداً، فشقت عيناه الزرقاوان الثلجيتان، بشكل ما، طريقاً من لهب إلى قلبها، فأحرقته.

وأخيراً تمتم يقول: «أخبريني كيف كان الأمر عند ذاك، يا كاس، بيننا أنا وأنت».

ـ أنا.. أنا..

ولم تعد كاس تدري شيئاً. لقد نسيت سبب جدالهما وسبب وجودهما في هذا المكان. عادت بها السنوات إلى الوراء، وتملكتها مرة أخرى مشاعر سيطرت على عقلها.

غزت قوة نابضة بالحياة جسدها، عندما التفت ذراعان حول خصرها وجذبتاها إليه. عانقها فأحست وكأن مخدراً سرى في عروقها واتجه مباشرة إلى قلبها ورأسها.

لم تنبث بكلمة، فلم يكن هناك ما يقال. وهو يسندها على الشجرة

الخشنة يعانقها بقوة محمومة تقارب العنف.

وفجأة ألقي إليهما حبل نجاة غير مرغوب فيه، ولكن لم يكن من الممكن تجاهله.. سمعا صوتاً ينادي. بدا بعيداً في البداية، لكنه راح يقترب شيئاً فشيئاً. وكان، كلما اقترب، يقطع عليهما خلوتهما الجنونية تلك.

ولم يتوقف دراي كارليزل إلا بعد أن اقترب الصوت بشكل خطر، وأخذت كاس تدفعه عنها بذعر.

تركها ببطء وهو يقول: «لا بأس، إنه مساعدي الخاص أليك ستيوارت».

أليك ستيوارت، والد الصبي الذي تم إنقاذه.

ولكن لماذا لا بأس؟

وجاءها الجواب، فهو درايتن كارليزل الغني البالغ النفوذ، والقوانين العادية لا تطبّق عليه، وبإمكانه أن يفعل ما يريد. أما هي، فإنها الطرف المسكين الذي سمحت له بهذا، وفي يوم جنازة أختها!

غمرتها أمواج الخزي، ولم تستطع النظر إليه فحدّقت إلى الأرض وابتعدت بشكل غير متوازن، بينما كان أليك ستيوارت يقترب.

لم يكن لديها فكرة عن وجهتها، فهي متلهفة إلى الابتعاد وحسب.. وراحت تسأل نفسها مرة بعد مرة كيف أمكنها ذلك؟ وفي هذا اليوم بالذات.. كيف أمكنها أن تسمح له، هو من بين كل الناس، بأن يعانقها؟

ربما كان على حق حين قال إنها شهوانية للغاية، ولكن هل هذا ممكن، وهي لم تقم أيّ علاقة؟

لا.. الأمر يتعلق به هو. لم يكن عليه سوى أن يلمسها. وهذا ما حدث في المرة الماضية. الفرق فقط هو أنها، في المرة الماضية، اعتبرته حباً وأخذت تحلم بالنهاية السعيدة.

عادت بذكرياتها إلى الماضي مرة أخرى، إلى يوم زفاف بين. كان الطبيب الشاب قد ذهب وبقيت هي في مكانها. شعرت بالتعب بعد محاولتها الفاشلة لإنقاذ الصبي، فأغمضت عينيها للحظة وإذا بها تستغرق في النوم.

أيقظتها حينذاك يد غريبة، فوجدت درايتن كارليزل واقفاً بجانب السرير. قال لها حالما استيقظت: «ستذهب أختك قريباً، هل تشعرين بالقدرة على النزول؟».

حدقت إليه وهي تتذكر ببطء أحداث النهار حتى وصلت إلى أهم حدث وهو عناقهما. أما بقية الأحداث فوجدتها تافهة بالمقارنة مع ذاك العناق.

قال إزاء صمتها: «هل أنت بخير؟».

فأجابت: «نعم.. نعم.. طبعاً».

ـ لقد استعرت لك بعض الملابس.

وأشار إلى ثوب وملابس داخلية ملقاة على طرف السرير العريض.

ـ شكراً.

ـ سأنتظر في الخارج.

ثم خرج مغلقاً الباب خلفه بهدوء. لم يعد غاضباً منها، بل كان جامد الملامح فقط.

نظرت كاس إلى ساعتها وهي تطرد النعاس من عينيها، فاكتشفت أنها نامت ثلاث ساعات تقريباً.

وعندما عاد كانت جاهزة. وأدركت أنه وسيم للغاية.

كانت نظراته عنيفة، لكن وجهه بدا جامد التعبير.

وعندما حاولت أن تقف، أوشكت على السقوط. لم تشعر بعجزها، إلاّ حين وقفت.

قال بلهجة عملية: «سأحملك إلى الأسفل».

ـ حسناً!

وعندما أحس بكراهيتها لذلك قال: «إلا إذا كنت تفضلين أن يحملك جون».

ـ جون؟

ـ الدكتور ميكيلسن.

فلوت شفتيها قائلة: «لا أظن أن الطبيب ملزم أيضاً بحمل مرضاه».

ـ قد يقوم باستثناء في حالتك، إذ يبدو متيّماً بك.

كادت تضحك وقالت: «متيماً بي؟».

بل كادت تضحك فعلاً لولا أنه لم يكن يمزح. وقال رافعاً حاجباً: «ربما أنا مخطىء، واهتمامه بمكان سكنك ونوع عملك هو مجرد اهتمام طبي».

فقالت: «أراهن أنك أخبرته بأنني مفتشة في سوبر ماركت».

ـ لا، لم أخبره بشيء.

وعندما تقدم إليها ليحملها، شعرت بقدمها شبه ميتة. وعندما خرجا من الغرفة، أضاف: «لم أخبره بشيء عدا ما هو واضح».

أدركت كاس أن عليها ألاّ تسأل. لكنها لم تستطع مقاومة رغبتها، فقالت: «وما هو ذلك؟».

ـ أن اهتمامه بك غير مرغوب فيه.

ـ حسناً!

قالت متحدية، وهي تنظر مباشرة في عينيه: «إذاً، أنت تشعر أن بإمكانك التحدث بالنيابة عني؟».

بادلها نظراتها قائلاً: «كنت أتحدث بالنيابة عن نفسي».

لم تنبس بأيّ كلمة، وأدركت من الجدية التي بدت على وجهه أن الأمر لم يعد مزاحاً..

لم يضف كلمة، إذ لم يكن بحاجة إلى ذلك. بدا واضحاً في عينيه وفي طريقة حمله لها.

ألقت رأسها على كتفه محاولة إخفاء شعورها، وارتجفت حين دفن وجهه في شعرها.

حين نزل السلم ثم خرج من الشرفة الأرضية، كان يضمها إلى صدره، ويلامسها دون أن يعانقها، تاركاً تلك التفاصيل إلى الوقت والمكان المناسبين.

ثم دخلا مكان الحفل وامتزج السحر بالحرارة والضجة وخصوصاً بوجه أختها المذهول، وهما يدخلان.

لكن سرعان ما أخفت هذه انزعاجها عندما وضع دراي كاس إلى المائدة، وراح المدعوون يهنؤونها على إنقاذها الصبي عصر ذلك اليوم. ولكن عندما ذهب دراي مع توم ليحضرا شراباً، شرعت بين تحقق معها.

كانت قد سمعت بقصة الإنقاذ تلك، لكنها لم تصدقها تماماً. فهي تعرف أن كاس لا تحسن السباحة جيداً. لكن كاس كانت صادقة، وروت الوقائع كما هي. ولكن عكس صوتها شيئاً ما.. شيئاً مختلفاً عندما نطقت باسم دراي.

فسألتها بين بصراحة وبصوت هامس: «ما الذي يجري بالضبط؟».

فأجابت: «لقد أخبرتك لتوّي».

ـ ليس عن هذا، بل عنك وعن دراي.

ـ ماذا؟

هل بدا ذلك واضحاً إلى هذا الحد؟

فتابعت بين: «لا تتظاهري بالبراءة. كان يصعد إلى البيت كل نصف ساعة ليتفقد حالك».

إذن، لم ينسَها! وجاهدت كاس لإخفاء سرورها. وقالت مدافعة عن نفسها: «كنت نائمة».

فقالت بين بصوت حاد تبدو فيه الغيرة: «حقاً؟ من يرى الطريقة التي كان يحملك بها، يظنك تشارفين على الموت».

هل تغار منها لأنها لفتت نظر دراي؟ خطرت هذه الفكرة لكاس، لكنها عادت فاستبعدتها. كان الاهتمام الذي أثارته، هو سبب هذه الغيرة. وهذا طبيعي فهذا اليوم هو يوم بين.

أمسكت كاس بيد أختها تواسيها، وقالت لها: «اسمعي، أنا آسفة إذا أفسدت عليك ليلتك هذه. أنت محقة لقد أثيرت ضجة على أمر تافه، لكن درايتن قلق للغاية، بسبب إهماله ويمكنني مقاضاته على ذلك».

بقيت بين عابسة، لكنها بدت مستعدة للاقتناع وسألتها: «وكيف ذلك؟».

ـ لعدم وضع سياج حول النهر، ولوجود شظايا الزجاج المبعثرة على الأرض.

كان هذا السبب غير معقول، لكنه أفضل ما فكرت فيه كاس.

سرّت بين جداً لهذا، رغم أن الذعر سرعان ما تملكها فسألتها: لا يمكنك أن تفعلي هذا! ربما تظنين أنهم مجموعة من المتغطرسين الذين يستحقون ذلك، ولكن عليّ أن أعيش مع هذه الأسرة».

فابتسمت كاس لها: «إهدئي، يا بين، هل من الممكن أن أذهب الليلة إلى البيت وأستدعي المحامي؟».

فقالت بين: «لكن، ليس لدينا محام».

فقالت كاس: «نعم!».

ربما لدى آل كارليزل شركة محامين على استعداد للمواجهة في أي وقت.

وأخيراً قالت كاس: «كل ما أرجوه هو أن أنسى كل شيء عن هذه الحادثة التافهة، وأرجو أن تتمكني أنت كذلك من نسيانها».

بدت بين هادئة، واستطاعت أن ترسم ابتسامة على شفتيها عندما عاد توم يتبعه دراي.

أعاد الحديث مع بين كاس إلى الواقع. لكنها شعرت بإحساس غريب يخالجها ما إن تقابلت عيناها وعيني دراي.

أشاحت بنظرها عنه، وركزت اهتمامها على الحديث مع توم وبين قبل أن يغادرا الحفلة.

رافقتهما إلى الشرفة الأرضية، حيث كانت سيارة تنتظرهما لتقلهما إلى لندن لقضاء شهر العسل في فندق ريتز.

عزفت الموسيقى وراح الراقصون يختالون على وقع نغماتها. وعاد دراي فجلس بجانب كاس، ثم أمسك بيدها من دون أن ينطق بكلمة.

شعرت كاس بالخجل لإمساكه بيدها أمام الجميع، فقالت: «لا يمكننا أن نفعل ذلك أمام الجميع».

ـ بل نستطيع.

وبقي ممسكاً بيدها. لم يتحدثا كثيراً. ولأول مرة في حياتها تملكها التوتر. أخذت ترشف شرابها وتستمع إلى الأحاديث التي تدور.

شارفت الحفلة على نهايتها فحمل دراي كاس عائداً بها إلى المنزل. لم تشعر بألم في قدمها، لكنها لم تكن تشعر بقدمها أيضاً. وبما أنها لم تأت على ذكر العودة إلى منزلها، افترض دراي أنها باقية.

وهكذا، أخذها إلى الغرفة التي نامت فيها، فمرّ بالسرير متجهاً نحو الحمام وقال: «أظن أنك تريدين غسل يديك ووجهك».

ـ نعم، هذا صحيح!

أجلسها على صندوق الملاءات الخشبي أمام المغسلة، وأحضر إليها فرشاة أسنان ومعجوناً. فراحت تغسل وجهها وأسنانها، بينما عاد إلى الغرفة وقال لها: «هل تستطيعين تدبر أمرك وحدك؟».

ـ نعم، بالطبع.

ـ بدّلي ملابسك، وسأعود بعد عشر دقائق لأحملك إلى السرير، هل هذا يناسبك؟

أومأت إيجاباً واستطاعت أن تخفي مشاعرها حتى خرج. اعتقدت أنه سيحملها إلى غرفة النوم ويحاول أن يغريها، لكنها لم تتوقع هذا الانفصال المفاجيء، مما جعلها تشعر بالحماقة وبحزن عميق في قلبها.

ركّزت كاس اهتمامها على الاستعداد للنوم، وتمسكت بكرسي الحمام لكي تستطيع تبديل ثيابها ورسمت الجمود على ملامحها قبل أن يعود.

حضر دراي فحملها إلى السرير، وأجلسها على حافته بعد أن طوى الغطاء الخارجي. اتكأت على الوسائد في وضع الجلوس، ثم جرت الغطاء على ساقيها.

ابتعد دراي عن السرير قائلاً: «تصبحين على خير!».

فقالت وهي تتأمل غطاء السرير: «وأنت بخير».

كانت لهجتها غريبة مفاجئة، فأدرك دراي أنها استغربت تصرفه. كان يحاول أن يفعل ما هو صواب، لكنه أخذ يتساءل الآن عما هو الصواب. وراح يحدق إليها إلى أن رفعت بصرها إليه.

قال لها بهدوء: «إذا عانقتك، لن أرغب في التوقف، وقد لا أستطيع ذلك. هل تفهمين؟».

ـ نعم.

فقال دون شعور بأي أسف أو حسرة: «ولا أظنك مستعدة تماماً لهذا. لذا، سأنتظر إلى أن تستعدّي».

وافقته كاس على ذلك، فهي لم تكن مستعدة فعلاً، ولن تكون مستعدة أبداً. فقد بدا لها كاملاً، فهو وسيم وذكي، وجذاب وغني. أما هي فبالكاد تُعد جميلة.

لكنه إذا انتظر، فلن يحدث شيء أبداً. غداً سيستيقظان على الواقع، ويدركان استحالة أن يكونا معاً.

أخذت تنظر إليه وهو يسير نحو الباب، ثم التفت إليها يسألها: «هل أطفيء النور؟».

فأومأت إيجاباً، ثم قالت بعد أن خيّم الظلام: «كما أريدك أن تعانقني».

ساد صمت مطبق، فأمسكت كاس أنفاسها وبدا لها وكأن الزمن قد توقف. ثم إذا بالباب ينغلق.

مضت عليها لحظة اعتقدت فيها أنه خرج، فشعرت بالعذاب. لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما سمعت وقع أقدام على السجادة.

جلس على حافة السرير. ومنعها الظلام من أن ترى عينيه ووجهه، لكنها شعرت برقة فائقة في صوته وهو يقول: «هل أنت واثقة؟».

ـ نـ.. نعم.

ـ لا يبدو ذلك في صوتك.

ـ بل، أنا واثقة من ذلك، إلاّ إذا غيّرت رأيك..

فقاطعها بلطف وهو يأخذها بين ذراعيه: «يا لك من حمقاء!».

عاشا أياماً سعيدة للغاية. واستضافها دراي لثلاثة أسابيع رائعة خرجا فيها معاً إلى المسارح، ضحكا معاً وتحدثا في شتى المواضيع، واغتنما كل فرصة ليتعانقا حتى اعتقدت كاس أن زواج العاملة في متجر من أحد ملوك المال لم يعد مستحيلاً.

لكن كل شيء انتهى، وكانت نهاية حزينة. فقد عاد توم وبين من شهر العسل، وإذا بكل شيء ينتهي فجأة.

ومن دون إيضاح، تخلى دراي عنها بالسرعة نفسها التي أمسكها بها.

حاولت بين أن تخفف عنها. قالت لها إنه لم يتركها لذاتها، وإنما لأن هذه هي طبيعته على الدوام.

ولكن كاس لم تجد في ذلك أي مواساة. وأدركت أنها كانت واحدة في صف طويل، كما أدركت السهولة التي وقعت فيها في حب شكله وسحره.

لكن الكرامة عادت تثبت وجودها. حان الوقت للتوقف عن سلوكها الأحمق هذا، ومعاودة نشاطها. لقد عاملها وكأنها نكرة، لذا عزمت على أن تكون ذات شأن. وهكذا عادت إلى الجامعة لتنهي دراستها في الطب.

وها هي الآن طبيبة مبتدئة، ولكن لا شيء تغيّر. فهو ما زال بإمكانه أن يسيطر عليها كما يريد. وإذا ما أخذت من الماضي عبرة أن تهرب هذه المرة. تهرب بأسرع ما تستطيع وإلى أبعد ما يمكن عن دراي كارليزل.

***

٥ ـ مشرّدة

لكن الهرب كان صعباً. فقد وجدت نفسها بين النباتات المتشابكة والأشجار العالية، ولم تعد تعرف مكانها.

أسرعت قليلاً عندما سمعت صوتاً يناديها، ووقع خطوات خلفها. لكنها وبدلاً من أن تصل إلى المرج، اصطدمت بالسياج الخشبي، فأدركت أنها وصلت إلى حدود أملاك كارليزل.

وما لبث دراي كارليزل أن ظهر وقال لها: «لقد ضللت طريقك».

رمقته بنظرة قصيرة. كان هادئاً متمالكاً نفسه كعادته على الدوام. لا بد أنها كانت في وضع حميم مع رجل آخر غير دراي كارليزل منذ لحظات.

تابع درايتن يقول مشيراً إلى الطريق الذي جاء منه: «المنزل من هنا!».

لم تجد كاس أمامها خياراً آخر. سارت في الممر المعبّد إلى أن وصلت إلى المرج. واتجها نحو المنزل بصمت، لكنه أوقفها قبل أن تصعد الدرجات، قائلاً: «بالنسبة إلى ما حدث عند النهر..».

فقاطعته قبل أن يكمل كلامه: «كنت تكذب، أليس كذلك؟».

فسألها مستغرباً: «أكذب؟».

ـ أعني قولك إن بين أخبرتك تلك الأشياء عني.

انتظرت جوابه، لكنه لم يتفوه بأيّ كلمة وراحت عيناه تتأملانها. ندمت كاس على سؤالها، فقالت: «لا تقلق، فأنا أعلم أنك تكذب».

وأخيراً أجاب: «ما كان عليّ أن أقول شيئاً، لا سيّما اليوم!».

فاعتبرت كاس هذا اعترافاً منه بالذنب، ورضيت بذلك، فيما تابع هو

يقول: «كما أنه ما كان عليّ أن أعانقك».

فقالت له: «إنس ذلك، فقد نسيته أنا».

لوى شفتيه بسخرية وقال: «هذا سهل عليك، أليس كذلك؟».

لا.. لم يكن ذلك سهلاً عليها أبداً، لكنها أرادت أن تثأر منه، فقالت: «بصراحة.. نعم».

وافقت على كلامه ببرودة، وقد سرّها ما بدا على وجهه. إذا تصوّر أنه يحتلّ مكاناً في حياتها، فلا شك أنه غيّر رأيه الآن.

وأخيراً قال، مظهراً أن أخاه يشغل اهتمامه الأول: «هذا حسن، ما دمت ستتحدثين إلى توم».

لم تقل كاس شيئاً وهي تصعد الدرجات. أرادت أن تبتعد نهائياً، لكن توم، الذي كان يراقب الطريق في انتظارهما، خرج من الباب وتقدم نحوهما.

قال من دون تمهيد: «لم أستطع الذهاب إلى هناك، خصوصاً إلى البيت الصيفي. هل تفهمين؟».

فأومأت تقول: «نعم، أنا أفهمك».

فتابع بسرعة: «اكتشفت أنها اعتادت أن تستعمله، أظن الأرض فقط. فليس هناك أريكة.. أو كرسي. هل أخبرتك هي؟».

بادلته كاس النظرات بصمت. هل هذا كل ما أراد أن يسألها عنه؟

والتفتت إلى دراي تقول شيئاً من دون صوت، ثم عادت تبتعد. لكنه أدركها، وقبض على ذراعها. فاستدارت نحوه غاضبة: «ألم تدرك ذلك؟ حسناً، إنها إهانة، هل هذا واضح؟».

فقال لها وهو ينظر إلى أخيه القلق: «اهدئي. لم أكن أعلم أنه سيوجه إليك سؤالاً كهذا».

فردّت بحدة: «هكذا إذن! حسناً، لمعلوماتك الخاصة فقط، دعني أخبرك بأنني لا أعرف شيئاً عن علاقتها هذه، لا أعرف اسمه، ولا عمره، ولا مكان سكنه.. لا شيء إطلاقاً، ولا أريد أن أعرف».

فقال لها: «نعم، لا بأس، أنت محقّة، أنا أصدقك».

فردّت عليه بحدة لنفاقه الواضح: «لا، أنت لا تصدقني. لكنه، مع ذلك، صحيح. لم أر أختي سوى ست مرات طوال السنوات الثلاث الماضية، وفي أي من تلك المناسبات، لم تأتِ على ذكر ما تتكلم عنه، مفهوم؟».

وعلا صوتها مع ازدياد غضبها. لكن درايتن حافظ على رباطة جأشه، ونظر إليها محذراً.

لاحظت كاس أن باب الشرفة مفتوح، وخلفه غرفة الإستقبال حيث الناس يتناولون غداءهم.. أو لعلهم كانوا كذلك إلى أن سمعوا الأصوات الغاضبة فتوقفوا عن الأكل لكي ينظروا إلى الشرفة. فهتفت بذعر: «آه، يا إلهي. هل تظنهم سمعونا؟».

وأخذت تتذكر بفزع ما قالته. ولم يغيّر لهجته وأجاب: «ربما. أظن أنه من الأفضل أن أعود إلى المعزين وأحاول إصلاح الوضع».

ـ لا تتوقع مني أن أذهب إلى هناك، أنا أيضاً.

فهز دراي رأسه وقال: «لقد تعلّمت ألاّ أتوقع أي شيء منك، يا كاس، منذ زمن طويل. يمكنك أن تذهبي الآن إذا شئت، وربما هذا أفضل».

تذهب؟ الآن بعد أن قلب عالمها رأساً على عقب مرة أخرى؟ تذهب؟ الآن حين لم يعد بحاجة إليها!

وإذا بتوم الذي كان يستمع إلى حديثهما، يقول: «لا يمكنها أن تذهب! لا يمكنها أن تذهب يا دراي! لا أدري ماذا أفعل. كاس.. أرجوك، عليك أن تساعديني».

ونظر إليها بلهفة. وكان واضحاً أن صبره قد نفد.

بإمكان كاس أن تترك دراي كارليزل، فهي لا تدين له بشيء. أما توم، فالأمر معه مختلف.

وهكذا قالت بهدوء: «لا بأس يا توم، سأبقى».

فأغمض عينيه وقال بارتياح: «الأمر سرّي، فلنذهب إلى مكان ما».

فاقترح دراي: «إلى غرفة الجلوس».

فأومأ توم وسار أمامها. وإذ همّت كاس بأن تتبعه، أمسك دراي بذراعها مرة أخرى، قائلاً: «سأسرع قدر الإمكان. لا تأخذي كل ما يقوله توم على محمل الجد، فهو ليس في حالة عقلية جيّدة».

ـ هذا ما أدركته، لا تقلق، سأدعه يتكلم فقط.

ـ حسناً!

وتركها تذهب، لكنها بقيت تشعر بنظراته تلفحها وهي تسير مبتعدة مع توم.

تقدمها توم إلى غرفة خاصة، فتبعته.

انتظرت أن يتكلم. لكن بعد أن أصبحا بمفردهما، بدا وكأنه يجد صعوبة في الكلام.

وأخيراً قال بصوت مخنوق: «أنت تعرفينها أكثر من أي شخص آخر، أليس كذلك؟».

كان بإمكان كاس أن تقول نعم، ولكن هل هذا ما يريد أن يسمعه؟

ـ لا يمكنني أن أقول ذلك.

ـ لكنك تعرفين بأمر الطفلة.

فهزت رأسها وقالت: «كلا، في الحقيقة، لم أعرف قبل هذا الأسبوع.. كيف حالها؟».

قطب توم جبينه وقال بفروغ صبر: «أنا لا أعني هذه الطفلة، عنيت الأخرى».

شعرت كاس بقلبها يعتصر. كان عليها أن تتوقع هذا طبعاً، وقالت تكسب الوقت: «الطفلة الأخرى؟».

فلوى شفتيه ألماً: «كان لديها طفلة من قبل. افترض الأطباء أنني كنت أعلم، لا بد أنك تعلمين».

لم تجد كاس طريقة تنكر بها ذلك، ولم يعد هناك سبب يجعلها تنكر..

فقد ماتت بين.

فقالت بهدوء: «نعم. لقد أنجبت بين طفلة حين كانت أصغر سناً».

ـ كم كانت تبلغ من العمر؟

ـ وهل هذا مهم؟

ـ نعم، مهم كثيراً بحق جهنم!

كان غاضباً فبدا أشبه بأخيه الأكبر. لكن كاس لم تتفاجأ لذلك، فقد تحطم عالمه منذ أسبوع.

ـ كانت في السادسة عشرة.

ـ ومن كان الوالد؟

ـ كان فتى تعرفت إليه في حفلة، ولم يكن يكبرها بكثير.

ـ لا بد أنها كانت تحبه، ما جعلها تحتفظ بالجنين!

ـ أظن ذلك.

لم تشأ أن تخبره بأن الأوان كان قد فات قبل أن تتمكن بين من التصرف بشكل آخر. وتابعت تقول: «كانت صغيرة جداً يا توم، وكانت تلك غلطة اقترفتها وأرادت أن تنسى كل شيء عنها. هل يمكنك أن تتفهم ذلك؟».

كانت تتكلم بلطف، لكن ذلك لم يخفف من استياء توم. لم يشأ أن يفهم بين، أراد أن يؤلمها لكل الأكاذيب التي أخبرته بها.. إلا أنها لم تعد حيّة الآن. لكنه اعتبر كاس بديلاً لها وها هو الآن يجرّحها بكلامه: «وأين كنت أنت عندما حدث كل ذلك؟ هل شغلتك حياتك الخاصة عن مراقبتها؟».

أجفلت كاس إزاء هذا الإتهام، متقبلة شيئاً من الحقيقة فيه. فقد كانت مستغرقة في دراستها، في الوقت الذي كانت بين ترتاد النوادي الليلية ولا تعود إلاّ في الصباح.

أحس توم بألمها من صمتها، فخاف أن تتركه وتذهب: «آسف.. ما كان عليّ أن أقول ذلك».

فقالت وهي تدرك أن حزنه هو الذي يتكلم: «لا بأس».

فقال بصوت متهدج: «لكنني بحاجة لأن أعلم. ماذا حدث لطفلة بين

الأولى؟».

ـ لقد ماتت بعد الولادة مباشرة.

مضى وقت طويل منذ تحدثت عن هذا الأمر. وفي الواقع لم تكن تتحدث مع أختها عنه. برغم كراهية بين لحملها ذاك، إلا أن خسارتها كادت تدمرها.

وقال: «ظننت أن هناك من تبناها».

ـ لقد ناقشنا ذلك.

ـ ليس هذا صعباً أليس كذلك؟ أعني أن الكثير من الأسر تتلهف إلى تبني طفل.

ـ أظن ذلك!

قالت ذلك، مع أنها لم تكن مقتنعة بما قالته.

لكن توم كان له رأيه الخاص، فقال: «هذا أحسن حل، أليس كذلك؟».

هذه المرة لم تجب كاس. لم ترد أن تتحدث عما كان ليحصل، لو أن طفلة بين عاشت.

ثم تابع يقول: «على كل حال، هذا قرارك أنت، فأنا لا يحق لي أن أقرر. علمت أن بإمكان الطفلة أن تسافر.. وسأكون شاكراً إذا أمكنك أن تأخذيها اليوم».

حدقت كاس في توم غير مصدقة، وقد تشوش ذهنها. شعرت أن واحداً منهما، قد فقد إدراكه.

ـ ما الذي تقوله يا توم؟

ـ كما سمعت، أحدثك عن الطفلة.

ـ أي طفلة يا توم؟

قطب جبينه متسائلاً عما إذا كانت تصغي: «طفلة بين طبعاً! ألم يخبرك دراي عنها؟».

هزت رأسها، لا بد أنها أساءت الفهم، لا يمكن أن يطلب منها أن

تأخذ الطفلة معها. وقالت وهي ترتجف: «توم.. لم أفهم تماماً.. أتريدني أن..».

فقاطعها بقوله: «أريد ذلك! لقد فكرت في الأمر منذ أيام. أعلم أنها لم تفعل شيئاً، فهي مجرد طفلة، لكنني لا أستطيع أن أربيها».

أدركت كاس أن توم فقد اتزانه. لكن السؤال هو، إلى متى سيستمر هذا الوضع؟ لأيام؟ لأسابيع؟ لأشهر؟ وأثناء ذلك من سيرعى الطفلة؟ لا أحد يمكنه القيام بذلك سواهما، هي ودراي، ولن يتطوّع دراي للقيام بذلك. كما أنها لن تستطيع أيضاً الاضطلاع بهذه المسؤولية، فليس لديها ما تمنحه للطفلة.

قالت بهدوء: «اسمع يا توم، لا تسمح لك حالتك باتخاذ مثل هذا القرار. فقد فقدت زوجتك للتو، كما اكتشفت أمراً مؤلماً بعض الشيء عن ماضيها. ربما عليك الآن أن ترتبط بطفلتك، ولكن ذلك..».

شحب وجهه لسماعه ما قالته كاس وقال: «ليست طفلتي».

أجفلت كاس لسماع ذلك. لم تتوقع أن يقول لها توم ذلك! لم تجد ما تقوله، ومرة أخرى لاذت بالصمت.

وجعله صمتها يقفز إلى استنتاج، فقال: «كنت تعلمين هذا، أليس كذلك؟ أنا قلت لدراي إنك تعلمين».

عادت كاس تهز رأسها. لم تكن تعلم بالحمل، ولم يلحظ توم ذلك وهو يحدّق بفنجانه. ثم أضاف يقول: «هل هو الرجل نفسه الذي كانت تعرفه السنة الماضية؟ أم هو شخص جديد؟».

فقالت مستنكرة: «ليس لدي أدنى فكرة يا توم، فأنا بالكاد رأيت بين في السنتين الماضيتين..».

فضحك بمرارة: «لا، طبعاً. لقد نسيت هذا. كانت تدعي أنها تمضي كل تلك الليالي في الخارج في زيارتك، فالأمر سهل. بواسطة التليفون الخليوي، يمكنها أن تدّعي أنها في أي مكان».

وأطلق، مرة أخرى، ضحكة معذبة. بدا واضحاً أنه فكر في هذا الأمر

آلاف المرات، لكنه ما زال بحاجة إلى مراجعته مرة أخرى.

ـ توم، لا يمكنني أن أخبرك كم أنا آسفة.

قالت هذا بضعف ما جعله ينظر إليها بصرامة ذكرتها بأخيه الأكبر، ويقول: «أحقاً أنت آسفة؟ وهل كنت آسفة أيضاً عندما كذبت لأجلها عندما اتصلت بك مرة؟».

بدا الخزي على كاس. كانت بين تستعملها ذريعة حين تخرج، وذلك من دون علمها، ثم تتوسل إليها لتساند قصتها. ولطالما غضبت كاس غضباً شديداً، ولم تشأ أن تفعل هذا، لكن بين أخبرتها بأن ذلك قد يقضي على زواجها.

وأجابته بهدوء: «نعم. كنت آسفة، آسفة جداً، لكنني ظننت أنني أقوم بالعمل الصائب. فقد أدركت بين أنها كانت معتوهة، وأنها تحبك أنت، ووعدتني بألا تكرر أبداً مثل تلك العلاقة».

فقال توم ساخراً: «لقد قالت لي الشيء نفسه، ولكن فقط بعد أن جعلتها تعترف بكل... أنت لا تحسنين الكذب، يا كاس، أتعرفين هذا؟».

أومأت كاس موافقة. وأضاف بمرارة: «أختك أفضل منك في ذلك بكثير، فقد صدقتها حينذاك. صدقت أنها ستكون مخلصة بعد ذلك، كم كنت أحمق».

فقالت بلطف، محاولة التخفيف عنه: «أنا واثقة من أنها كانت صادقة في ذلك».

لكن توم لم يكن بحاجة إلى التعزية، بقدر ما هو بحاجة إلى الحقيقة، فسألها: «ما كان اسمه؟ لي الحق في معرفة ذلك على الأقل».

ـ لا أعلم، صدقني!

وكان بإمكانها أن تقول ذلك بضمير مرتاح.

أخبرتها بين بأن الرجل الآخر هو مدير في شركة كارليزل للإلكترونيات، ولكن لم يكن من الحكمة أن تطلع توم على هذه المعلومات الآن. فقال وقد بدا عليه عدم التصديق: «حسناً، هذا غير مهم، فأنا لا

أتصور أنه سيطلب الطفلة على كل حال».

فقالت له ضارعة: «توم، لماذا أنت واثق من أنها ليست ابنتك؟ هل أجريت فحصاً؟».

فهز رأسه: «لا أريد أن يخبرني الفحص بما أعرفه. تصرفاتها.. تمنّعها.. كل ذلك يشهد.. لا بد أنها قالت لك شيئاً».

فأجابت: «قالت فقط إنكما تصالحتما وإنكما تريدان تأسيس أسرة، وكان ذلك منذ مدة طويلة».

فسألها وكأن الأمر مهم للغاية: «متى بالضبط؟».

كانت كاس حينذاك تقوم بأولى خطوات عملها الشاق في المستشفى، فقالت: «لا أذكر التاريخ. أظن أن ذلك كان في بداية شهر تشرين الأول».

فلوى شفتيه قائلاً: «كانت تكذب».

ـ لا أظن ذلك!

وأخذت تتذكر فحوى الحديث، فلم تجد سبباً يجعل بين تكذب.

جاءت بين إليها تلتمس نصيحة طبية، فتوم يلحّ عليها لتأسيس أسرة، وأرادت أن تعلم احتمالات الحمل الآمن.

حدثتها كاس، حينذاك، بصراحة. لم يكن بإمكان بين أن تنجب طفلاً على الإطلاق. فالمجازفة كبيرة للغاية، حتى ولو كان ذلك تحت إشراف المستشفى. كانت نسبة نجاح ذاك الحمل ستين بالمئة فقط. وليس أمام بين إلاّ أن تعترف لتوم بماضيها.

تملّك بين الذعر لهذه الفكرة، لكن كاس نبهتها إلى أنها إذا حملت مرة أخرى، فسيعرف الأطباء بأمر الحمل الأول ومن غير المحتمل أن يخفوا ذلك عن توم.

اعتقدت كاس حينها أنها أقنعت أختها. أما الآن، فهي تشعر بأنها خذلتها لأنها لم تلاحق الأمر في المرة الثانية التي زارتها فيها، وصدّقت كلام بين حين قالت لها إنها اتفقت مع توم على إلغاء فكرة إنجاب الأطفال كلياً.

وكرر توم قوله: «كانت تكذب. فقد كانت حينذاك حاملاً».

هتفت كاس باضطراب: «ماذا؟».

ـ كانت حاملاً بشهرين في شهر تشرين الأول.

بقيت كاس مقطبة الجبين. كيف يمكن هذا؟ وأخذت تحسب في ذهنها، ثم قالت: «ظننت أن الطفلة ولدت قبل أوانها».

كانت واثقة من أن دراي أخبرها بذلك.

فقال توم: «ظننا ذلك في البداية. لكن الأطباء قالوا إنها مكتملة النمو، إنهم يعلمون بهذه الأمور».

وتأوهت كاس في داخلها وهي تدرك ما فعلته بين. جاءت إليها تطلب منها الموافقة على الحمل، فيما هي حامل فعلاً. وعندما لم تعطها الموافقة، قررت أن تدفن سرها.

وأضاف توم: «التواريخ تشهد بذلك».

ـ تشهد بماذا؟

ـ بأن الطفلة ليست ابنتي.

وافترضت من قوله هذا أنه كان غائباً عندما حدث الحمل.

ـ أنا حقاً آسفة يا توم.

لكنه لوّح بيده وكأنه لا يريد أن يسمع ذلك. ونهض واقفاً، فتبعته وهي تبحث عن وسائل تخفف بها عنه.

ولكن يبدو أنها خففت عنه فعلاً حين قال: «شكراً لمجيئك، فأنا أشعر الآن بتحسن. . لن تخبري دراي، أليس كذلك؟».

ـ عن الطفلة؟

ـ نعم.

ـ ولكن إذا كنت لا تنوي الاحتفاظ بها. .

فقاطعها: «لا، فأنا أعني الطفلة الأولى، لا أريد أن يعلم أحد بذلك».

كان عنيداً فلم تجادله. وقالت دون تفكير: «إسمع، إذا كان هناك شيء يمكنني أن أقوم به. .».

فأجاب وهو يسير نحو الباب: «يكفي أنك ستأخذين الطفلة».

ـ ولكن، يا توم. .

ربما لم يسمع. . أو لم يشأ أن يسمع. . وهو يغادر الغرفة من دون كلمة. فاندفعت خلفه ولكنها وقفت جامدة عندما وصل إلى الردهة الأمامية. فقد انضم إلى دراي وخالهما ليودّعوا المعزين المغادرين.

لم تشأ أن تعود للجدال معه أمام الناس، وهكذا عادت إلى غرفة الجلوس. شعرت بعدم القدرة على الخروج الآن، وجلست وهي تعلم بأن دراي كارليزل سيلحق بها إلى هنا.

افترضت أنه كان يعلم بما أراد توم أن يسألها عنه، ولعل هذه الخطة حظيت بموافقته المسبقة.

حاولت أن تفكر في الأمر، أرادوها أن تمرّ على المستشفى لتأخذ الطفلة معها. وكأن الأمر بهذه السهولة، وكأن ليس لكاس حياة عليها أن تعيد بناءها.

لن تتخلى عن حياتها، لأن هذا ما كان يعنيه ذلك. يريدها توم أن ترعى ابنة أختها، لكن كاس تعلم أنها لن تتمكن من القيام بذلك. لقد حملت مرة طفلة أخرى، قطعة صغيرة حية ماتت بين ذراعيها. تذكرت كيف كان شعورها حينذاك، وإذا حدث وحملت هذه الطفلة، فهي لن ترغب في التخلي عنها أبداً.

بإمكانها طبعاً أن ترحل الآن. لن يمنعها أحد من ذلك. لكنها فكرت في طفلة بين، التي لم تعد من أسرة كارليزل ولم يعد يريدها أحد.

انتظرت لحظة قصيرة قبل أن يظهر دراي كارليزل. وقف عند العتبة والإزدراء يكسو ملامحه الوسيمة، وقال: «لا أصدق أنك فعلت ذلك!».

ـ فعلت ماذا؟

ـ أخبرت توم أنك ستأخذين الطفلة.

هزت كاس رأسها. لقد تعبت من سوء حكم هذه الأسرة عليها، وأجابت: «لم أفعل!».

ـ لكنه يقول إنك فعلت.

فكررت تقول: «أنا لم أقل شيئاً وتوم سمع ما أراد أن يسمعه».

صمت دراي لحظة، وشردت عيناه الزرقاوان، قبل أن يهز كتفيه قائلاً: «مهما يكن، أظنك لا تنوين أن تأخذيها».

كان جوابها العبوس، لم تعلم ماذا عليها أن تفعل، لكنها استاءت من هذا الموقف المحرج. فقالت: «هل كنت تتصور أنني سأفعل هذا؟ هل كانت هذه هي الخطة؟ أن تحضروني إلى هنا لحضور الجنازة، ثم تناولونني إياها وتنتهي المشكلة».

أطلق دراي ضحكة خشنة وقال: «لا أعتقد أن ذلك سيحدث، فأنت لا تملكين عواطف الأمومة، أليس كذلك؟».

ـ وما أدراك؟ فأنت لا تعرفني!

احمرت وجنتاها، وبدا عليها الغضب أكثر من الارتباك، وهي تقول: «لقد أصبح ما بيننا من الماضي. هل علينا أن نستمر في الحديث عن هذا الأمر؟».

فرفع حاجبيه ساخراً: «هذا مضحك، فقد حدث هذا للتو بجانب النهر. ومع ذلك، أنت على حق، علينا ألاّ نخرج عن الموضوع. علينا أن نتخذ قراراً بالنسبة إلى ابنة أختك. وكما فهمت، توم مقتنع بأنها ليست ابنته.. والمشكلة هي ماذا ستفعل؟».

هل يسألها رأيها؟ هذا ما يبدو. لكن كاس لم تجد وقتاً تكوّن فيه رأياً.

قالت: «يبدو أن توم يريد أن يتبناها أحد».

ـ نعم، ويبدو أن هذا أفضل الحلول إذا لم تكن ابنته.

ـ هل أنت مقتنع بما يقوله توم؟

ـ ليس تماماً! وهذا ما يجعلني أنتظر نتيجة اختبار الدم.

فقطبت جبينها وقالت: «لكن توم قال إنه لم يجر فحصاً للدم».

فتردد قليلاً قبل أن يقول: «لا، لكنني أنا فعلت ذلك. المفروض أن يكون الـ (د ن ا) في دمي شبيهاً بدم أخي، لكي يثبت أو لا يثبت القرابة».

لم تعارضه في ذلك، بل قالت: «وهل وافق توم على هذا؟».

ـ لقد وقّع على بعض الأوراق الرسمية.

ـ ألم يقرأ الأوراق أولاً؟

ارتسمت ابتسامة صغيرة على فمه، وقال: «وهل هذا مهم؟ المهم هو إثبات الأبوة».

فقالت: «لن يثبت فحص دمك ذلك، إلا إذا كانت ابنة توم».

ـ هذا صحيح. يقول توم إن ليس لديك فكرة عن الرجل الآخر المرشح للاختبار.

فقالت بفتور: «لا».

وتحدّته عيناها أن يجرؤ على طلب إثبات ذلك. لكنه لم يفعل، وهذا ما ستتذكره فيما بعد.

ـ حسناً، سآخذها من هنا.

وأمسك بمقبض الباب يريد أن يفتحه، ومضت لحظة قبل أن تدرك أن وجودها لم يعد مرغوباً به، فسألته: «هل يمكنني أن أذهب؟».

ـ نعم.

هل الأمر هكذا؟ إنه حقاً يظنها بلا مشاعر وأحاسيس. قالت: «إسمع. إذا ظهر أن الطفلة ليست ابنة توم..».

فقاطعها قائلاً: «لا تخافي، لن أذهب إليك».

كان على كاس أن تشعر بالارتياح لأن العناية بالطفلة ستؤثر سلباً على مهنتها، هي التي تعبت في سبيل استعادة تلك المهنة. ولكن آلمها أن تجد نفسها عاجزة عن القيام بذلك.

ـ لماذا ألحّيت على دعوتي إلى المنزل؟

ـ أراد توم أن يتحدث إليك. لم أدرك السبب بالضبط، وإلا لما كنت طلبت منك ذلك.. ومع هذا يبدو أن روع توم قد هدأ الآن.

ـ لأنه يظن أنني سآخذ الطفلة.

ـ نعم.. حسناً. لنتركه يعتقد ذلك إلى أن نتدبر طريقة أخرى؟

ورفع حاجبيه يسألها عن رأيها في هذا الإقتراح، فأومأت بالقبول. لم

تشأ أن تكدّر نوم أكثر من ذلك.

فتمتم باختصار: «شكراً. سنخرج الآن من باب المنزل الجانبي».

تبعته إلى حيث كانت سيارته واقفة. فقال مشيراً إلى السائق الذي ينتظر في داخلها مستعداً للانطلاق: «سيأخذك رينشارد إلى حيث تشائين».

ـ شكراً.

همت بصعود السيارة لكنه أضاف: «أتصوّر أن هذا هو الوداع بيننا».

فأجابت مسيطرة على مشاعرها: «وهذا ما أتصوره أنا أيضاً».

ـ أعتقد أن هذا القرار سيكون حكيماً، نظراً لتأثير كل منّا على الآخر.

أرادت أن تنكر ذلك، أن تقول له إنه لا تأثير له عليها. لكن ذاكرتها لم تكن ضعيفة إلى هذا الحد. فهو ينظر إليها بطريقة جعلتها تتذكر مقابلتهما في الحديقة بكل وضوح.

لم تفهم ما يجري. أن تكره شخصاً إلى هذا الحد، وتبقى تشعر نحوه بذاك الانجذاب.

ـ عليّ أن أذهب.

في الواقع، ودّت لو تقول: «أهرب».

ولم يمنعها. كان هو أيضاً يريدها أن ترحل.

***

٦ ـ وصيّة

أمضت كاس ليلة سيئة للغاية، فقد استدعيت ثلاث مرات ما بين منتصف الليل والسابعة صباحاً لعمليات طارئة، قبل أن يبدأ دوامها النهاري.

وبما أنها بحاجة ماسّة إلى النوم، راحت تراجع كل ما تكتبه في ملفات المرضى، مرتين تجنباً لأيّ الخطأ.

وفي نهاية دوامها، كان الإرهاق قد تملكها. شعرت كاس بحاجة إلى الراحة عندما التقت كريس بات، وهو أحد الأطباء الشبان، في صالة المستشفى. فحياها مازحاً: «مرحباً بالدكتورة باركر الجميلة، كل شيء جاهز لقضاء عطلة أسبوعية رائعة».

وسار بجانبها وهو يقول: «سأسير معك إلى محطة نفق المترو».

فنظرت إليه تسأله: «ألست في دوام العمل؟».

فقال: «إننا في فرصة تناول الطعام، كما أنني بحاجة إلى هواء نقي».

أومأ محيياً البواب، ثم اتجها نحو الطريق العام. كانا قد قطعا حوالى العشرين متراً حين ظهر أمامهما فجأة شخص ما.

أجفلت كاس تغالب رغبة، تملكتها، في اه ب. لقد مضى أكثر من شهر على موت بين، دون أن تتلقى كلمة واحدة من أسرة كارليزل. وها هو دراي كارليزل يظهر أمامها فجأة.

قال بدون تمهيد: «أنا بحاجة للتحدث معك».

كان صوته متوتراً والغضب واضحاً في عينيه. ما ذنبها الآن؟

www.elromancia.com

فقالت وهي تحاول تجاوزه: «حسناً، أنا لست بحاجة للتحدّث إليك».

سدّ عليها الطريق، قائلاً: «لن آخذ من وقتك سوى خمس دقائق، هل هذا مفهوم؟ لقد انتظرتك ساعتين».

بدا عليها الامتعاض. وتدخل الدكتور كريس بات قائلاً: «إسمع، إذا لم تشأ أن تتحدث إليك...».

وإذا بنظرة صارمة من درايتن كارليزل تسكته، فالتفت إليها قائلاً: «أهو مريض من مرضاك؟».

فهزت رأسها نفياً، بينما تدخل دراي قائلاً: «بل شخص فارغ الصبر، فأرجوك أن تتركنا وحدنا قليلاً».

رفع كريس يديه وتراجع قائلاً: «حسناً، أنا أستسلم يا كاس، فأنا عاشق لا محارب..».

قطبت كاس حاجبيها، متمنية لو أنه استعمل كلمة أخرى غير كلمة عاشق هذه.. بينما ازداد عبوس دراي وبدا على وشك أن يفقد صبره.

قالت بثقة أكثر مما تشعر بها: «سأكون بخير».

وفي اللحظة التي أصبحا فيها وحدهما، سألها دراي: «هل هذا هو؟».

ـ هو من؟

فقال بازدراء: «أحد عشاقك؟».

فعبست وقالت: «لا تكن سخيفاً، إنه زميل ليس إلاّ».

ـ هل هو طبيب؟

ـ نعم.

أدركت مما قاله أنه أصبح الآن يعلم أنها طبيبة.

لوى فمه قليلاً قبل أن يسألها: «هل يوجد مقهى في هذه الأنحاء؟».

ـ في آخر الطريق، لماذا؟

ـ هل يمكننا أن نذهب لنشرب شيئاً؟

ـ ماذا؟

هل يظن حقاً أنها ترغب في الذهاب معه إلى أي مكان بعد الطريقة التي

تحدث بها إليها لتوّه؟ وإذ رأى نفورها تابع يقول: «أو، بدلاً من ذلك، يمكننا أن نقف هنا في الطريق، وندع الجميع يعرفون مشاكلنا. أترك لك الخيار».

ونظر إلى الطريق المؤدي إلى المستشفى حيث مجموعة من الممرضات عند البوابة. وميّزت كاس بينهن اثنتين تعملان معها في القسم، وإذ لم تشأ أن تصبح هدفاً للأقاويل في المستشفى، قالت له: «نعم، لا بأس».

سارا معاً وتجاوزا سيارته. وفكرت في أن تضيّعه قبل وصولهما إلى المقهى، ولكن لم يكن لديها فرصة لذلك.

انتظرت منه أن يخترق الصمت، لكنه لم يبد مستعجلاً.

رفعت بصرها إليه فرأته يحدق إليها، وبقي كذلك إلى أن حوّلت بصرها عنه.

قالت له رغماً عنها: «لماذا جئت؟».

فكرر كلامه السابق: «أنا بحاجة للتحدث إليك. وبما أنك لم تردي على اتصالاتي، لم يعد لديّ خيار آخر».

فقالت: «اتصالات؟ أي اتصالات؟».

ـ تركت لك على المجيب الآلي ثلاث رسائل على الأقل، في اليومين الماضيين.

ـ كنت في العمل.

فبدا عليه الارتياب وقال: «كما اتصلت بالمستشفى فقيل لي إن ليس لديهم عاملة تنظيفات باسم كاسندرا باركر، وإنما دكتورة جديدة فقط بهذا الإسم، ويمكنهم الاتصال بها على جهازها إذا كنت أعرف رقمها.. فافترضت أنها أنت».

أومأت وقالت بجفاء: «هذا شيء محيّر، أليس كذلك؟ أعني أن نتمكن، نحن الطبقة السفلى، من ارتقاء مثل هذه المناصب».

فقال ببطء: «وأنت تستحقين ذلك. كنت لأهنئك، لولا خشيتي أن تفسّري ذلك كغطرسة مني. أما ما يحيّرني أكثر، فهو عدم ذكر أختك لمهنتك».

هزّت كاس كتفيها. كانت تعلم أن أختها لم تكن تريدها أن تتفوق عليها في أي ناحية. لكنها قالت، محاولة أن تظهر الأمر إهمالاً منه هو، وليس من بين: «لا أتصور أنك أبديت يوماً أي اهتمام بذلك».

لكنه فاجأها بقوله: «كنت، في الواقع، أسأل عنك من وقت لآخر. فكانت تقول إنك تعملين في مكان لبيع الهامبورغر أو تلمّح إلى أنك مشغولة على الدوام بحبيب. لكنني لا أتذكر أنها كلمتني يوماً عن كلية الطب. متى تخرجت؟».

ـ منذ عام.

ـ إذن، لا بد أنك كنت في الجامعة عندما تعارفنا.

فقالت لتظهر له أنها لا تشعر بالخزي من عملها القديم: «لا. أنسيت أنني كنت مفتشة في سوبر ماركت؟».

قطب حاجبيه، وتكهنت بأنه يتساءل عما إذا كانت دكتورة حقاً وليست فتاة مهووسة تتظاهر زوراً بأنها كذلك.

ـ دخلت الجامعة لدراسة الطب بعد المدرسة مباشرة. لكنني قطعت دراستي سنتين، ثم عدت إليها من جديد.

لم تشأ أن تعترف بأنه كان حافزاً شجعها على العودة إلى دراسة الطب.

سألها بارتياب: «ولكن لماذا قطعت دراستك؟».

ـ لظروف قاهرة.

ـ وما هي تلك الظروف؟

هذا ما كانت غير قادرة على أن تخبره به، لأنها وعدت توم بأن تحفظ سر حمل بين الأول. فقالت له: «ما هذا؟ هل هو استجواب رسمي؟».

فتوترت شفتاه وقال: «أريد فقط أن أوّفق بين ماضيك وحاضرك. لا أتذكر أنك أشرت مرة إلى أي من هذا أثناء علاقتنا القصيرة».

هذا صحيح، فقد جعلها شعورها بالخيبة تكره الحديث عن دراستها التي لم تتابعها.

ـ لقد أقلقك هذا، أليس كذلك؟ أن تعلو مساعدة في سوبر ماركت

فوق مركزها الاجتماعي.

هز رأسه. كان هذا دليلاً على السخط أكثر منه على الرفض، وقال: «أما زلت تؤمنين بصراع الطبقات يا كاس؟ لقد توقف هذا الصراع منذ زمن طويل، ألا تسأمين أبداً من ذلك؟».

ودل صوته على أنه سئم هو أيضاً. أما كاس التي كانت متعطشة إلى الشجار فقد خف غضبها، وقالت: «حسناً، لقد سئمت حقاً هذا الاجتماع، فلتتحدث عن الغرض منه..».

ـ حسناً.

وأخرج من جيبه مغلفاً أبيض وضعه أمامها. كان اسم كاس وعنوانها مدونين عليه، ولكن من دون طابع بريدي. مضت عليها لحظة قبل أن تميّز الخط، لكنها لم تمد يدها لتأخذه. وأخيراً قال: «وجدنا هذا بين أشياء أختك، ولم يكن مناسباً أن نضعه في البريد».

فأومأت كاس وقالت: «هل قرأته؟».

فقال بانزعاج: «لا، فما زال لدي شيء من الضمير».

ـ وهل قرأه توم؟

ـ طلب توم من مدبرة المنزل، السيدة هندسن، أن تخلي أدراج أختك وخزائنها. فأحضرت الرسالة، خائفة من أن تزيد من اكتئاب توم.

فسألته باهتمام حقيقي: «وكيف حال توم؟».

فتردد لحظة ثم قال: «إنه غير متعقل».

ضاقت عينا كاس وهي تتساءل عما يعني بكلمة غير متعقل. لكنه لم يسهب، وأضاف بدلاً من ذلك: «أتريدين أن تعلمي عن الطفلة؟».

فأجفلت وشعرت برغبة شديدة في معرفة أخبار الطفلة، ولكنها ارتابت أيضاً في ذلك.

افترض أن صمتها ينم عن عدم اكتراث، فتابع يقول: «حسناً، سأخبرك على كل حال. أثبت اختبار الدم أن ثمة ارتباط بين دم توم والطفلة».

فتملكها الإرتياح وسألته: «وهل قبل فكرة أنه هو الوالد؟».

ـ ليس تماماً.

ولم ينظر إليها هذه المرة وهو يتابع: «قبل توم فكرة أن والد الطفلة من أسرة كارليزل، ولكن ليس هو!».

ـ ولكن من غيره بإمكانه..

وسكتت فجأة وتركزت نظراتها على الرجل الجالس أمامها، فقال بلهجة لم تظهر انزعاجه: «أرى أنك وصلت إلى النتيجة نفسها التي وصل إليها».

أتراه لم ينزعج لأن الأمر ليس صحيحاً؟ أم لأنه كذلك؟ وبادل نظرات الاستفهام بنظرة ساخرة. لا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً! مهما كان رأيها بدراي كارليزل، فهو لا يمكن أن يخون أخاه.

ـ لماذا لا تفتحين الرسالة؟ من يعلم؟ قد يكون فيها تفسير لكل شيء.

كان هذا تحدياً. وتساءلت إن كان يعلم ما بداخلها، من دون أن يقرأها. أترى أختها أسرّت إليه بأمرها؟ وأخيراً تناولت الرسالة وقلبتها. وعندما رأت ما كتب على ظهرها، أجفلت. كانت أختها قد لصقت بطاقة على مكان إقفال الرسالة وكتبت عليها بحروف أنيقة: (لا تُقرأ إلا إذا حدث لي مكروه).

فتحت كاس الغلاف وأخرجت الرسالة وهي تشعر بالخوف.

قرأت منها سطرين: (عزيزتي كاس. إذا كنت تقرئين هذه الرسالة، فمعنى هذا أنني لم أنجُ). ثم طوت الرسالة، ووقفت قائلة: «المعذرة، عليّ أن أذهب إلى الحمام».

نظر إليها بارتياب، وعندما رأى حقيبة يدها على الكرسي تركها تذهب.

لم تكن بحاجة حقاً للذهاب إلى الحمام، بل أرادت الانفراد بنفسها.

قرأت الرسالة ببطء وعيناها مغرورقتان بالدموع. رغم أن الرسالة بدأت بجملة (في حال موتي)، بدا أن بين كانت تتوقع أن تنجو من الموت.

قالت في الرسالة إنها حين قصدت كاس تطلب منها النصيحة، كانت حاملاً. ورغم جواب كاس السلبي، أرادت أن تكمل فترة الحمل حتى النهاية، خصوصاً بعد أن عرف توم بالحمل، وكاد يطير فرحاً به. قالت إنها فكرت في أن تخبره بالحقيقة كاملة، إلا أنها خافت أن يفسد هذا الأمور، فقد بقي وقتاً طويلاً حتى صفح عن سلوكها الأحمق. كما كتبت أنها كانت تذهب إلى مستشفى في لندن لإجراء استشارات قبل الولادة، واستطاعت أن تبقي توم بعيداً عن كل هذا.. على الأقل حتى يولد الطفل. وبعد ذلك، كانت واثقة من أنه سيغفر لها كل شيء.

لم تقل بين كيف أو ما هي الأمور التي تحتاج إلى تصحيح، بل قالت إنها تتوقع من كاس أن تصلح الأمور. وأنهت رسالتها بقولها (أخبري توم بأنني حقاً أحبه)، كما وقعت (أختك الصغيرة المحبة دوماً). لكن ذلك لم يحرك مشاعر كاس التي لم تستطع أن تنسى أن أختها استغلّتها.

قرأت كاس الرسالة للمرة الثانية فجفت دموعها. لم ترَ بين منذ ثلاث سنوات، ومع ذلك، ها هي تنتظر من كاس أن تنظم الفوضى التي تركتها خلفها. أغضبت هذه الوقاحة كاس، قبل أن ترى الملحوظة التي خطتها على ظهر الرسالة.

(ملاحظة: آسفة بالنسبة إلى مسألة دراي. ولكنه لم يكن مناسباً حقاً لك، إنه حقير للغاية ومتقلب المزاج بشكل بالغ. وكان عليّ أن أفعل ذلك! فانتبهي).

فتحت هذه الرسالة جراحاً قديمة، وتركت كاس تتساءل عما تعتذر عنه بين بالضبط. كما أزعجتها صياغة الكلمات.

(حقير للغاية ومتقلب المزاج بشكل بالغ، وكان عليّ أن أفعل ذلك).

ماذا كان على بين أن تفعل؟ وهل ما قالته هو مجرد دعابة، أم أنها ملاحظة مبنية على خبرة مباشرة؟

هزت كاس رأسها. لا، لا يمكن أن تكون فكرة توم الجنونية صحيحة، لم تشأ أن تصدقها، ومع ذلك..

قطع عليها أفكارها صوت يقول: «مرحباً.. هل أنت هنا يا دكتورة باركر؟».

لم تعرف كاس صاحبة الصوت فأجابتها: «نعم، من أنت؟».

ـ أنا الممرضة الطالبة كلمنتس. آسفة لإزعاجك! ولكن صديقك طلب مني أن أرى إن كنت بخير.

تمتمت كاس بشتيمة صامتة، ثم أنزلت ماء المرحاض، وخرجت لتجد فتاة شابة وقد بدا عليها القلق، وبدت لها مألوفة بشكل غامض.

غسلت كاس يديها، ثم غادرت الحمام. وعندما اقتربت من الطاولة التي كان يجلس إليها دراي، كانت ما تزال غاضبة.

نهض قليلاً وهو يسألها: «هل أنت على ما يرام؟».

فردت بحدة وهي تمد يدها لتأخذ حقيبة يدها: «كيف تجرؤ؟».

أدرك قصدها، وبسرعة خفيفة، اختطف الحقيبة يمنعها من الذهاب.

وأجابها: «كنت قلقاً عليك».

فقالت وهي تصر على أسنانها: «اذهب إلى الجحيم، أعد لي حقيبتي».

ـ اجلسي أولاً.

نفخت بقنوط حين وضع حقيبتها بجانبه، بعيداً عن متناول يدها. كان بإمكانها أن تثير مشهداً غاضباً في أي مقهى آخر في أي ناحية أخرى في لندن، لكي يعيد إليها حقيبتها. لكن المقهى هنا كان مليئاً بالأطباء والممرضات والطلبة، وهي لا تريد أن تصبح محط الأقاويل في المستشفى. وهكذا جلست وهي ترتجف غضباً.

قال يحاول أن يهدئ من روعها: «اسمعي، أنا آسف. لقد تأخرت فقلقت عليك، وكل ما فعلته هو أنني طلبت من فتاة كانت ذاهبة إلى الحمام، أن..».

فقاطعته: «تلك الفتاة هي طالبة تمريض، ولن يزيد تفقدها لي في الحمام إلاّ من احترامها وتقديرها لي».

فرفع حاجبيه وقال بنعومة: «لم أكن أدرك أن مسألة الكرامة مهمة في

نظرك إلى هذا الحد».

حملقت كاس فيه. لقد جعلها تبدو مغرورة متفاخرة، بينما هي ليست كذلك. كل ما في الأمر أنها تعبت كثيراً لتنال الاحترام بصفتها دكتورة، بينما هي صغيرة وأنثى.

وقالت تثأر منه: «ذكّرني أن أقتحم عليك غرفة الاجتماعات يوماً ما، لأرى كم ستكون سعيداً، عندما تتداخل حياتك وحياتك المهنية».

لم يبدُ عليه الانزعاج من هذه الفكرة، وتمتم يقول: «لن يحدث أي مكروه».

هذا صحيح.. بصفته المدير التنفيذي.. وبصفته المدير التنفيذي يمكنه أن يفعل ما يشاء.

فتمتمت تجيبه: «أظنهم لم يعودوا يدهشون لما يجري في حياتك الخاصة».

ضاقت عيناه وسألها: «ماذا تعنين؟».

لم تشأ أن تفسر له ما هو واضح، فقالت: «فسرها أنت».

ـ ليس في حياتي ما يدعو للانتقاد. أنا أخرج مع النساء وأقيم معهن علاقات من دون أن يتوقع الواحد منا شيئاً من الآخر، وأظن أن هذا أصبح، في عصرنا هذا، شيئاً طبيعياً.

وفكرت بأن حياته تسير بكل هذه البساطة واليسر من دون أن يزعج نفسه بالضمير أو القيم الأخلاقية.

ـ المهم هو أن تحسن الاختيار.

ـ حسناً، أعترف بأنني قد أخطىء أحياناً.

وأطال النظر إلى كاس، مظهراً أنه يعنيها بذلك.

ـ هذا ما أظنه، إذا كان ذلك يتضمن زوجة أخيك.

كانت تماثله برودة، لكنها في داخلها تغلي غضباً وألماً.

لم يكد يتحرك، بينما أخذ النبض في صدغه ينتفض وقد توتر فكه.

ـ هل هذا سؤال أم اتهام؟

ـ فسره كما تشاء.

ـ حسناً. إذا كان اتهاماً، فمن المفروض أن يكون لديك أساسٌ لهذا. أما إذا كان سؤالاً، فأرجو أن تكوني أكثر صراحة؟

كانت كاس ترجو منه إنكاراً فاتراً، وليس هذا الهجوم المضاعف. وشعرت بالغثيان وهي تسأله بالصراحة التي طلبها: «هل كنت على علاقة بأختي؟».

أجفل لسؤالها وبدا من ضيق عينيه أن السؤال لم يعجبه. لم يبدُ عليه الغضب، وسألها رافعاً حاجبيه: «هل قالت ذلك في رسالتها؟».

وشعرت بأنها تريد أن تقذفه بمنفضة السجائر الزجاجية الثقيلة، كيف أمكنها أن تحب هذا الرجل؟ وكيف كانت عمياء إلى حد اعتقدت، ذات يوم، أنه يستحق الحب؟

ـ ماذا تظن؟

ومدت يدها تأخذ حقيبتها، تريد أن تتركه نهائياً، وإذا به يقبض على ذراعها ويرغمها على العودة إلى مكانها.

وأجاب بتثاقل: «لا أظن أن المرأة الشابة تكتب رسائل الوداع، متوقعة أن تموت أثناء الولادة. أظن أن لدى أختك سبباً يجعلها تتوقع الخطر، فكتبت إلى أقرب الناس إليها بشيء من التفاؤل، تطلب منها أن ترعى مولودها إذا عرف توم أنه ليس منه.. هل أبالغ في ذلك؟».

لقد استنتج المضمون، رغم أن بين لم تطلب منها بصراحة رعاية مولودها.. طلبت منها فقط أن تتأكد من أن المولود يحظى بالرعاية اللازمة. وانصب اهتمام كاس على الذي قاله وكأنه يعترف بذلك.

فقالت تتهمه: «كنت تعلم إذن أن الطفلة ليست ابنة توم.. وأنها ابنتك أنت».

شعرت أنها ضغطت على وتر حساس، حين رأت العرق يتصبب من جبينه. واشتدت يده لحظة على يدها التي كان يمسك بها، قبل أن يطلقها مرة واحدة، وكأن لمسها يثير اشمئزازه.

أجابها بخشونة: «لم أكن أعلم.. ولا أعلم شيئاً كهذا. وإذا كنتما، أنت وتوم، تتصوران أنني سأرعى الطفلة على الدوام فأنتما مخطئان. إلا إذا كان لديك شيء آخر تقولينه».

ورفع كأسه يجرع الشراب حتى آخر نقطة منه، بينما أخذت هي تحدق به مدهوشة. كان آخر حل تصورته، هو أن يرعى طفلة أختها.

بذلة أنيقة، قميص حريري، ربطة عنق محلولة عند الياقة، إنه بالغ الرجولة ورجل أعمال ماهر.

أدركت كاس أنه قال كل ما لديه، عندما نهض واقفاً وناولها حقيبتها، وانتظر منها أن تتبعه.

كانت كاس لتبقى من باب العناد لإثبات وجهة نظرها، لكنها شعرت بأن وجودها سبق وأثار فضولاً كافياً لإشاعة الأقاويل في المستشفى.

عندما غادرا المقهى، كان الليل لم يسدل ستاره بعد. وظنت كاس أن درايتن سيتركها ويذهب، لكنه لم يرحل بل قال: «سأوصلك بسيارتي».

فقالت له: «لا، شكراً. قطار الأنفاق أسرع».

ـ ربما.

تبادلا النظرات، كل منهما ينتظر كلمة الوداع من الآخر. والغريب أنهما الآن، بعد أن عادا إلى الواقع، لم يشأ أي منهما أن يسرع في الذهاب.

ودّت كاس طرح سؤال منذ وقت الجنازة. ولكن هل تريد حقاً أن تعرف الجواب؟

اندفعت تقول: «إسمع، بالنسبة إلى الطفلة..».

فنظر إليها بدهشة: «نعم؟».

فقالت مترددة: «أنا.. أنا.. أين هي الآن؟».

قطب جبينه يفكر في جواب، ولم يكن جوابه مشجعاً عندما قال ببساطة: «لماذا؟».

ـ أنا أهتم لأمرها طبعاً.

أتراه يظنها من دون مشاعر؟

بدا لها ذلك عندما توتر فمه متشككاً وقال: «تدبرنا أمرها».

تدبروا أمرها؟! إنه تعبير فظيع.

ـ كيف؟

فقال ببطء: «لا تخافي. إنهم يطعمونها ويسقونها».

هل كان يطمئنها بذلك؟ لم تظن كاس هذا. ومنعت نفسها من أن تسأل عما إذا كانوا يرعونها ويدللونها ويعطونها الحنان اللازم، لأنه سيسخر منها. واكتفت بأن قالت بجمود: «الأطفال بحاجة إلى الرعاية والحنان في شهورهم الأولى، وإلا ضعفت الروابط بينهم وبين أهلهم».

تأملها قليلاً قبل أن يقول: «إذا احتجت إلى كتاب عن تربية الأطفال، يا دكتورة، سأشتري واحداً. على أيّ حال، إذا أردت أن تتطوعي بتقديم بعض المساعدة العملية..؟».

وهل سيقبل ذلك؟ وتملكها الشك.

قاطعته قائلة: «لو استطعت لفعلت هذا. لكن لدي مهنة أبذل جهداً شاقاً في تأديتها».

بدا الزهو في صوتها مرة أخرى، وتوقعت منه أن يتخذ هذا موضوع سخرية. لكنه، بدلاً من ذلك، قال: «أعرف هذا، ولم أحضر إلى هنا لأقنعك بالعكس».

ـ لماذا جئت إذن؟

كانت واثقة من أنه لم يأت ليؤدي عمل ساعي البريد.

بقي لحظة تزن كلماته قبل أن يجيب: «أملت أن تكون أختك قد أكّدت لك أنّ توم هو الأب، ولكن يبدو من تصرفاتك أنها لم تفعل».

ـ هذا صحيح. ذلك الشرف ما زال بانتظار من يطلبه.. ومن المؤسف أن أياً منكما لا يريده.

قذفت بهذه الملاحظة فتوهج وجهه غضباً، ما جعلها تدرك أنها تجاوزت الحد. أشاحت بوجهها مبتعدة عنه، ولكنه عاد فجذبها من ذراعها: «لماذا أنت واثقة إلى هذا الحد من أنني طارحت أختك الغرام؟».

لم تكن واثقة لكن هذا السؤال أثار شكوكها، فأجابت: «وسأبقى كذلك إلى أن تقنعني بالعكس».

ـ أفهم اتهامك لي، لأن أختك كانت ودوداً.

ـ ماذا تعني؟

ـ لو أردت ذلك لحصلت عليه فالعرض كان موجوداً.

سواء أكان ذلك صحيحاً أم لا، فقد بدا ما قاله لكاس دنيئاً. فقالت له: «أنت نذل، يا دراي كارليزل».

وحاولت أن تهرب، لكنه لم يسمح لها بذلك، بل أمسك بذراعها يجرها إليه وهو يقول:

ـ ألم تكوني على علم ذلك؟.

أمسكها بخشونة فآلمتها قبضته، وصدره الذي كان أشبه بالجدار الصلب على صدرها.

قالت له بحدة:

ـ أنا لا أذكر شيئاً.

كشر عن أسنانه ضاحكاً ومزمجراً في الوقت نفسه وهو يقول: «كاذبة! دعينا نر إذن».

وأخذها بين ذراعيه، غافلاً عن المارة، وانحنى يعانقها بعنف.

غرزت كاس أصابعها في لحمه، وقد توتر جسدها، وراحت تقاومه رغم تلك الآهة العاجزة التي انطلقت من حلقها إلى أن أخذت تبادله العناق. وتملكتها مشاعر قوية تتحدى الكرامة والعقل.

وعندما رفع رأسه أخيراً، كان يهمس في شعرها متمتماً: «أنا أتذكر.. أتذكر كل شيء، وكيف كنا معاً...».

فقالت وهي ترتجف: «كفى!».

أغمضت عينيها مرة أخرى، وتركت مخيلتها تعمل. كان ذلك منذ ثلاث سنوات حين أحبت هذا الرجل وأحبها. كان يستعمل كلمات واقعية جعلت كل العواطف المحمومة المدمرة المخيفة التي شعرا بها نحو بعضهما

البعض، تبدو صواباً. والآن، وقد اندمج الماضي بالحاضر، رفع رأسه وأخذ يحدق إليها، وكأنه يريد أن يصل بعينيه إلى أعماق روحها. كيف يمكنه أن ينظر إليها بهذا الشكل من دون أن يشعر بشيء؟

وهزت رأسها قائلة:

ـ لم يكن ذلك حقيقياً قط.

رفع يده يلامس خدها، قائلاً: «ألم يكن كذلك؟ أنت وأنا.. أنا أشعر بأنه حقيقي، يا كاسي».

كاسي؟ إنه صدى آخر من الماضي. كان ذات يوم يدعوها كاسي، وقد أحبت هي ذلك. لكن تلك الفتاة رحلت.

نعم، لقد تذكرت! المشكلة أنها تذكرت ذلك أكثر مما ينبغي. لقد عاشت ثلاثة أسابيع في عالم خيالي، رأسها في السحاب وقلبها في رحلة ممتعة. وفجأة نزلت مدمرة إلى الأرض، بعد أن سَئِمها ورحل. ربما لو قال لها ذلك بنفسه، لتقبلت الأمر، لكنه ترك بين تقوم بعمله القذر. صدمها الألم حينذاك وحطم قلبها، وكانت تلك هي الحقيقة.

وإذ لم تكن ترغب في إحياء كل ذلك، قتلت أي رغبة قصيرة الأمد نحوه. وعندما أراد أن يعانقها مرة أخرى، أشاحت بوجهها، قائلة: «ليس هناك (أنا وأنت) يا دراي. لم تحبني يوماً لشخصي، وهذا ما لا يمكنني تحمله. ومع ذلك، سأتذكرك دائماً».

أضافت الجملة الأخيرة لتبدو لا مبالية وسمعته يتنفس بحدة، ورأسه ينتفض إلى الخلف بعنف. ورأت الرقة تتلاشى من عينيه، وشعرت بيديه تؤلمان معصميها فجأة. لكنها لم تهتم. كان هذا جزءاً بسيطاً فقط من الألم الذي سببه لها.

أخذت تنظر إلى ملامحه وهي تتحول إلى الغضب، للإحباط الذي سببته له. أتراه صدّق حقاً أنه يمكن أن يستغفلها مرتين؟

وأخيراً أجابها مزمجراً: «لا تزعجي نفسك! فأنا أفضل نساءً أكثر إخلاصاً».

فقالت هازئة: «ماذا؟ مثل زوجة أخيك، مثلاً؟».

كانت بهذا تهاجمه هو وليس أخته، ثم أفلتت من بين ذراعيه بعنف.

لم تنتظر منه جواباً، بل سارت مبتعدة وقد أعماها الغضب، وأخذت ترتجف ثائرة، دون أن تنظر خلفها. ثم أخذت تمسح وجهها حتى لم تعد تشعر بسوى المرارة، لا! لن تنسى الماضي.

* * *

٧ ـ نيران الشوق

بعد ذلك بأسبوعين، وقفت كاس على درجات المنزل، واستجمعت شجاعتها قبل أن تقرع الجرس.

وعندما لم يفتح أحد الباب، أعادت قرع الجرس. أخيراً، ظهرت مدبرة المنزل السيدة هندرسن.

بدا الارتباك على المرأة وقالت: «نعم؟».

فردت: «أنا كاسندرا باركر شقيقة السيدة كارليزل الراحلة. لقد اتصلت الأسبوع الماضي».

فقالت المرأة: «نعم، أهلاً بك!».

عرفتها السيدة هندرسن أخيراً، فتابعت تقول: «آسفة لأن السيد كارليزل غير موجود، هل يتوقع حضورك؟».

ـ ليس اليوم بالتحديد. كنت مارة بالصدفة في المنطقة فجئت لأرى ابنة أختي.

حاولت أن تبدو عفوية، رغم أنها لم تكن كذلك. لقد بقيت قلقة بعد ما قاله لها دراي عن الطفلة، وقلقت أكثر عندما اكتشفت أن ابنة أختها تعيش في هذا المنزل بشكل دائم.

وقالت للمرأة باسمة: «إذا كان لا بأس في ذلك».

استطاعت المرأة أن تبادلها الابتسام لكن بدا عليها الارتباك وهي تقول: «أظن ذلك.. لا أظن أن السيد كارليزل سيمانع».

لكن كاس تعلم أن دراي سيمانع جداً. إلا أنها خطت إلى الداخل،

وسارت أمامها المرأة وهي تقول: «تفضلي إلى غرفة الاستقبال وسأحضر بعض المرطبات، ثم أحضر الطفلة. إنها نائمة حالياً».

فقالت كاس وهما تدخلان الغرفة: «لا توقظيها لأجلي، يمكنني أن أنتظر».

بدا الإرتياح على المرأة: «حسناً، كما تشائين، هل تريدين القهوة أو الشاي؟».

ـ فنجان قهوة من فضلك!

أومأت مدبرة المنزل، ثم تركت كاس وحدها.

لم تجلس كاس وفضّلت الوقوف، ثم أخذت تذرع الغرفة بقلق. لقد اجتازت العقبة الأولى، لكنها ما زالت تشعر بالتوتر. فقد جاءت بادعاء زائف، ولو تصور دراي أنها ستأتي بهذا الشكل، لطلب من مدبرة منزله أن تمنعها من دخول المنزل.

كما لم تكن كاس واثقة من أنها تقوم بالعمل الصواب. فقد شارف عقدها مع المستشفى على نهايته. ووصلها في الأمس خبر من المركز الطبي في «سلوف» يعلمها أنهم يرغبون في تدريبها على أن تكون طبيبة أسرة. كانت مهنتها تجري كما خططت لها، يمكنها أن تنتقل من لندن وتبدأ حياة جديدة، وليس عليها أن تأخذ معها أي أمتعة غير ضرورية.

المشكلة هي أن عبارة (أمتعة غير ضرورية) جعلتها تشعر بالغثيان. بدت لها هذه الجملة شبيهة بجملة دراي كارليزل حين قال عن الطفلة: «تدبرنا أمرها». وبهذا، لم تعد هي أفضل من دراي كارليزل، أو لعلها أسوأ. ما الذي يعرفه رجل أعمال مثل دراي عن احتياجات الأطفال؟ لكنها هي تعرف. كانت تعلم أن الطفل ينبغي ألاّ ينقل من مكان إلى آخر كطرد بريدي. ومع ذلك، لم تفعل شيئاً في هذا الشأن، عدا عن اتصال واحد منذ أسبوع عرفت منه مكان إقامة الطفلة. فجاءت كارهة، يقودها الشعور بالذنب، والحاجة إلى الاطمئنان. لقد سمحت لدراي كارليزل بأن يبعدها عن المنزل بعد موت بين. ولكن منذ أن قرأت رسالة بين، لم تكف عن

التفكير بابنة أختها الصغيرة. ما زالت لا تعرف ما تريدها بين أن تفعل. لكن عليها أن تفعل شيئاً ما! ربما إذا رأت الطفلة، حسنة الصحة وتحظى برعاية جيدة، فستطمئن وتترك الأمر.

انتظرت كاس عشر دقائق ثم ربع ساعة قبل أن تقرر أنها لم تعد تستطيع الانتظار أكثر. سارت في الممر نحو المطبخ، بعد أن تناهى إلى مسمعها صوت بكاء.

رأت عربة أطفال خالية تقف في زاوية، والبكاء يأتي من بين ذراعي السيدة هندرسن. لفافة صغيرة حمراء الوجه تقيم المنزل بالصراخ وتقعده. وعلى الأرض بقعة حليب، وزجاجة حليب، وبقربها إبريق ماء ساخن على الموقد على وشك الغليان.

قالت السيدة هندرسن وقد بان الكدر على وجهها: «كنت مستعجلة للغاية، فانزلقت الزجاجة من يدي. آسفة بشأن القهوة، لكنها استيقظت..».

فقالت كاس وقد استوعبت الوضع: «لا بأس، سأحملها إذا شئت، بينما تعدين أنت لها زجاجة أخرى».

وتقدمت لتأخذ منها الطفلة. استمرت هذه في الصراخ لكن كاس بقيت هادئة، تضمها إلى كتفها وتتمتم مهدئة. إلى أن جهزت الزجاجة الجديدة. واستغرق تبريد الزجاجة فترة، لكن صراخ الطفلة خف، وعندما جاءت الزجاجة أخذتها بلهفة.

جلست كاس على كرسي وأخذت ترضع ابنة أختها. حتى تلك اللحظة، لم تستطع كاس تمييز الطفلة عن أي من الأطفال الباكين الذين عالجتهم أثناء الفترة القصيرة التي أمضتها في قسم الأطفال. أما الآن، فبإمكانها أن ترى فمها الشبيه ببرعم الوردة، وعينيها الزرقاوين، وشعرها القاتم وأهدابها الطويلة. لم تكن تشبه شقيقتها بين كثيراً، ومع ذلك شعرت كاس فجأة بشعور غريب جذبها نحو الطفلة، وأدركت كم بقيت بعيدة عنها.

قالت السيدة هندرسن بحرارة: «لا أعرف كيف أشكرك. أنا، عادة، أحتفظ بطعامها جاهزاً. لكنها استيقظت هذه المرة، قبل أوانها المعتاد، وأنا أرتبك كثيراً حين تصرخ».

فقالت كاس متعاطفة: «أعلم أن هذا صعب، لأن ذهنك موزع بين أشياء كثيرة، لما لا تعدّين عدة زجاجات وتبقينها جانباً؟».

فقالت المرأة بدهشة: «وهل يمكنني القيام بذلك؟».

ـ نعم، ويجب أن تبقى حلمات الرضاعة معقمة، والزجاجات تحفظ في الثلاجة في مكان منفصل عن بقية الأطعمة.

ـ هذا يسهّل الأمور حتماً! أنا مسرورة برعايتها، ولكنني لا أملك الخبرة لأنني لم أنجب طفلاً قط في حياتي...

كانت السيدة هندرسن امرأة طويلة القامة، لائقة المظهر، لكنها شارفت على الستين. هل تصور دراي حقاً أن بإمكان هذه المرأة أن تقوم بالأعمال المنزلية وبرعاية الطفلة في وقت واحد؟

وأضافت المرأة: «أظن أنه كان عليّ أن أسأل تلك الفتاة».

ـ أي فتاة؟

ـ ميلاني، المربية المؤقتة.

ـ وهل هو يوم عطلتها؟

فهزت المرأة رأسها: «لقد تركتنا أمس، من دون إنذار. فقد استيقظت قائلة إنها عانت ما فيه الكفاية، ولم أخبر السيد كارليزل بعد».

فتملك كاس الذعر. ألم يلاحظ بنفسه؟ وكيف لم يلاحظ؟

وأجابت المرأة على سؤالها الصامت: «إنه في أميركا. اقترحت السيدة كارليزل، زوجة سيمون، أن أنتظر حتى يعود. كل ما أرجوه هو ألاّ يعتبرني المسؤولة».

فقالت كاس: «ولماذا يعتبرك كذلك؟».

حاولت أن تطمئنها بالرغم من معرفتها باستبداد دراي.

ترددت السيدة هندرسن: «لا أريد أن أتحدث قبل الأوان».

فلم تلحّ كاس عليها، وقالت: «لا بأس!».

ولكن يبدو أن هذا الأمر يزعج المرأة. فقالت: «كل ما في الأمر أن الفتاة كانت سعيدة قبل سفر السيد كارليزل».

تكهنت كاس بما كان يجذب الفتاة، لكنها لم تقل شيئاً، إنه دراي كارليزل! وعادت تنظر إلى الطفلة. هذه المخلوقة الصغيرة الرائعة الجمال، التي لم تعد من دون اسم، بعد أن أصبح اسمها إلي. وتساءلت من تراه اختار هذا الاسم.

سألتها المرأة: «أتريدينني أن آخذ الطفلة، أم أحضر لك القهوة؟».

فأجابت كاس: «القهوة من فضلك، وسأتناولها هنا إذا لم يكن لديك مانع».

فقالت المرأة: «هل أنت واثقة؟ يمكنني أن أقدمها لك في غرفة الاستقبال...».

فهزت كاس رأسها: «صدقيني، فأنا غير معتادة على أن يخدمني أحد، سآخذ القهوة هنا في المطبخ فهذا يريحني أكثر».

ارتاحت مدبرة المنزل لصراحتها. وعندما جلستا معاً إلى المائدة تشربان القهوة، ورأت كاس تلاعب الطفلة بعد أن فقدت هذه اهتمامها بطعامها، قالت لها: «أنت طيبة جداً معها».

ـ لطالما لعبت دور حاضنة أطفال جيراننا عندما كنت أصغر سناً.

فتنهدت المرأة وقالت: «يا ليتني أكثر خبرة! لم يرزقنا الله بطفل، أنا وبوب».

فقالت كاس تقنع نفسها كما تقنع المرأة: «عسى أن تكرهوا شيئاً لعله خير لكم».

وكانت على وشك الإعلان عن رغبتها في الرحيل، عندما رن جرس الهاتف. سمعت كلام السيدة هندرسن، فأدركت أن خطباً ما حدث لزوج المرأة.

وعندما انتهت المكالمة، قالت مدبرة المنزل إن زوجها قد كسر وركه

أثناء اصلاحه السياج حول بيتهم، وأدخل إلى المستشفى. وقالت إنها ستذهب، ثم عادت فهزت رأسها وقالت إنه ليس بإمكانها أن تترك الطفلة وحدها.

كانت تتحدث إلى نفسها أكثر منها إلى كاس، فقاومت كاس دافعاً يحثها على تقديم معونتها. فقد عاهدت نفسها على ألاّ تورط نفسها في قضية الطفلة.

ـ وماذا بالنسبة إلى كاميلا، زوجة سيمون.

فكرت المرأة لحظة، ثم قالت: «لم تخطر ببالي قط.. نعم، ربما تقبل».

تناولت الهاتف لتتصل، وبدا عليها الإرتياح للجواب في البداية، ولكن سرعان ما اتضح لها عدم رغبة كاميلا في المساعدة.

وبعد أن وضعت سماعة الهاتف قالت لكاس: «السيدة كارليزل لديها ضيوف. لكنها وعدت بأن تأتي فيما بعد وتأخذ الطفلة لتمضي الليلة عندها، علي أن أنتظرها».

كان بإمكان كاس أن تتجاهل الأمر، فكسر الورك لا يهدد حياة المرء. لكن القلق على وجه السيدة هندرسن، ممزوجاً بضعف الطفلة إلي، جعلها تقول: «اذهبي، وسأرعى الطفلة بنفسي إلى حين حضور كاميلا».

فقالت المرأة: «لا يمكنني أن أطلب منك هذا».

فقالت كاس: «أنت لا تطلبين، بل أنا التي أعرض هذا».

ـ لا أدري كيف...

فقاطعتها كاس: «إسمعي، هذا ليس صعباً. أنا أعشق الأطفال كما أن إلي هي ابنة أختي».

لم تجادل مدبرة المنزل في حق كاس في الإشراف على الطفلة، فقبلت شاكرة: «إذا كنت واثقة..».

فقاطعتها كاس قائلة: «واثقة تماماً!».

وكانت كاس تكذب، فهذه ليست هي الزيارة القصيرة التي تصوّرتها، لكن السيدة هندرسن سرعان ما خرجت من المنزل لتطمئن على زوجها.

راحت كاس تفكر بأن غيابها لن يطول أكثر من ساعتين، وهي مدة لا تكفي لجعلها تتعلق بالطفلة.

وبدا أن إلي لم تمانع، فراحت تبتسم لكاس عندما مددتها على مفرش صغير، لتغير لها حفاظها، مدغدغة تارة أصابع قدميها ومقبلة إياها طوراً، متسببة بذلك بتعالي ضحكات الطفلة.

راحت كاس تفكر بما إذا كان الآخرون يعاملونها بهذا العطف والحنان.

لكنها هزت رأسها فجأة، وقررت ألاّ تفكر بالأمر. ستستمتع الآن مع ابنة أختها، ثم تختزن ذلك مع بقية ذكريات الأسرة.

كان النهار رائعاً، وهكذا قررت كاس الخروج للتنزه، فوضعت الطفلة في العربة، ثم أخذت المفتاح المعلق على اللوحة لتغلق الباب خلفها.

خرجت من المنزل، ثم نزلت ببطء إلى الطريق الخاص. وشعرت كاس بالانجذاب نحو تلك الطفلة بعد أن رأت تراقص الظلال والأضواء على وجهها.

كانت إلي من الأطفال الجميلين بعينيها الواسعتين القاتمتين ووجهها البيضاوي، وشعرها الأسود المنتشر على رأسها.

لكنها طفلة من دون أم، وفي الواقع من دون أب إلى أن يقرر واحد من أسرة كارليزل العكس. وإذ عادت تنظر إليها، راحت تفكر كيف قاوم كل منهما الإغراء بأن يكون والداً لهذه الطفلة الرائعة الجمال.

لو كانت حياة كاس مختلفة، لأخذت الطفلة على الفور. ولكن ليس لديها ما تقدمه لها، لا بيتاً حقيقياً ولا مالاً عدا ما تكسبه من عملها.

أدركت كاس أن آل كارليزل ما زالوا يعتبرون الطفلة فرداً من عائلتهم، ربما من دون التزام عاطفي، وإلا لما أحضرها دراي كارليزل إلى بيته بينما بإمكانه أن يدفعها للتبني بسهولة؟

ثم راحت تفكر بما يمكنها أن تقدمه للطفلة: الحب، وهذا كل شيء! كانت تعتقد، ذات يوم، أن هذا يكفي. اعتقدت ذات يوم أنها، بحبها

لشقيقتها، بإمكانها أن تجعل الأمور على ما يرام. لكن بين لم تكن سعيدة قط، لطالما تطلعت إلى شيء آخر حتى بعد أن امتلكت كل شيء.. المال.. المنزل الفخم.. الزوج المحب. ما الذي كان ينقصها إذن؟

لم تكن كاس تدري، هذا ما جعلها تتساءل عما إذا كانت ستنجح أكثر مع ابنة بين.

قالت بصوت عالٍ وهي تبتسم للطفلة التي تحدق إليها: «إلي».

كانت جميلة حقاً كاسمها. وتساءلت كاس عمن اختار هذا الإسم، توم أم دراي أم لعلها بين قبل أن تموت؟

من غير المحتمل أن يكون توم لأنه لم يعترف بها، كما أن بين لم تشر إلى اسم معين في رسالتها. ولكن إذا كان دراي، ألا يدل هذا على احتمال أبوته لها؟ من تراه يخدع؟ مجرد أخذه الطفلة إلى بيته يثبت هذه الحقيقة. عليها فقط أن تتقبل الأمر! حقيقة أن دراي طارح أختها الغرام. ولكن، لمَ تعتبر هذا الأمر مهماً إلى هذه الدرجة؟ فقد مات شعورها نحوه منذ سنوات، والمخدوع هنا هو، توم. وتوم وحده يجب أن يشعر بالانهيار لهذه الخيانة المزدوجة. أما بالنسبة إليها، فالمسألة فقط مسألة جرح في كرامتها يذكرها كم كانت حمقاء منذ سنوات.

لم يتملكها ذلك الشعور نحو أي رجل غيره. شعور أسمته، حينذاك، حباً. لم تقل له ذلك طبعاً، فهي لم تشعر بما يكفي من الثقة به، لكي تعرب له عن حبها.

على أيّ حال لم يكن بحاجة إلى سماع ذلك بعد أن أصبحت مجنونة به. إن كلمة (أحبك) كلمة سهلة، إلا إذا كان قائلها يعنيها حقاً. وهكذا افترضت هي أنه كان يعنيها، فيا لسذاجتها.

ابتلعت كاس غصتها بصعوبة، ثم تابعت سيرها لكنها سرعان ما وقفت قبل أن تصل إلى الكوخ حيث يسكن الخال تشارلز. لطالما كان طيباً معها، ولكن من يعلم ما قاله له دراي عنها في الجنازة؟

عادت تصعد إلى المنزل الرئيسي فدخلته من الباب الخلفي. وكانت إلي

قد عادت إلى النوم، فاغتنمت الفرصة لتعد لها عدة وجبات، ثم جلست تنتظر حضور كاميلا.

كانت المرأة قد وعدت بالحضور عند الساعة الثالثة، لكنها لم تأت قبل السادسة تقريباً. وأظهرت المرأة، بشكل واضح، أنها تقوم بهذه المهمة بالرغم عنها.

وقفت عند العتبة تتأمل كاس وهي تقول بعجرفة: «كنت أتوقع أن أجد السيدة هندرسن. من أنت؟».

لم تدهش كاس لعدم تعرّف المرأة إليها. فهي ليست من النوع الذي يهتم بالنساء الأخريات.

فقدّمت نفسها إليها: «أنا كاس باركر، أخت بين».

بدت الكراهية على وجه المرأة على الفور وسألتها: «ماذا تفعلين هنا؟».

ـ جئت لأرى ابنة أختي.

تابعت كاميلا قولها عابسة: «هل يعلم دراي أنك هنا؟».

ـ لا، فقد مررت بالصدفة. ولكن لا تخافي، فأنا لا أفكر في خطفها!

فردت عليها بجفاء: «هذا مؤسف، لحل هذا كل مشاكلنا. علمت أنك مشغولة جداً بمهنتك».

ـ نعم على بعضنا أن يعمل لكي يعيش، فنحن لم نتزوج المال.

لوت المرأة شفتيها بازدراء وقالت: «أتعنين أختك؟ لأنه من غير الممكن أن تعنيني أنا، فأنا لدي حسابي الخاص».

ـ ما أجمل هذا! لا بد أنه جعلك محبوبة.

بدا الغضب على كاميلا وقالت: «ماذا تعنين؟».

أدركت كاس أنها مسّت وتراً حساساً، وقررت ألاّ تجادل أكثر، فقد تجاوز حديثهما حدوده.

ـ إنسي ذلك. ذهبت السيدة هندرسن إلى المستشفى، وإلي نائمة حالياً. وقد جهزت بعض زجاجات حليب لها ستجدينها في الثلاجة.

ووقفت جانباً لتسمح لكاميلا بالدخول، لكن المرأة بقيت واقفة عند

العتبة وقالت: «حسناً، يبدو أن كل شيء على ما يرام. لذا سأتركك مع الطفلة».

فحدقت كاس إليها غير مصدقة: «ماذا؟».

ـ سأتركك مع الطفلة.

ثم استدارت على عقبيها فتبعتها كاس بسرعة، قائلة: «انتظري، قالت السيدة هندرسن إنك ستأخذين الطفلة لهذه الليلة؟».

ـ ذلك في حالة الضرورة القصوى فقط.

ثم فتحت سيارتها وقالت وهي تدخل إليها: «وبما أنك هنا، لم يعد هناك من ضرورة لذلك!».

أمسكت كاس بباب السيارة تقول قبل إغلاقه: «ولكن لا يمكنني البقاء هنا. وحتى لو تمكنت من ذلك، فسيعترض دراي كارليزل بغضب بالغ على بقائي في منزله».

نظرت إليها متفحصة ثم قالت: «أحقاً، ولماذا؟».

لم تشأ كاس أن تعطها تفاصيل فقالت: «إنه لا يريد امرأة غريبة في بيته، هذا كل شيء!».

فقالت المرأة بلؤم: «كيلا تسرقي فضيات الأسرة؟ لا يهم، فهي مؤمّنة.. والآن، هلا تركت الباب».

وتطاير الحصى من تحت عجلات سيارتها وهي تنطلق بها بعنف.

عادت كاس إلى البيت وهي تتساءل عما عليها أن تفعل. هل تتصل بالسيدة هندرسن وتطلب منها العودة؟ لكنها لا تعرف اسم المستشفى. هل تعود بالطفلة إلى لندن معها؟ لا، لا يمكنها ذلك لأسباب كثيرة مختلفة. ماذا تفعل إذن؟

لا شيء سوى البقاء!

عندما استيقظت إلي أعطتها كاس إحدى الزجاجات التي أعدتها لها، ثم قامت بجولة في المنزل إلى أن وجدت غرفة حضانة مؤقتة، وضعت إلي في مهد متنقل ثم أخذت تنظر حولها. كان ورق الجدران قديماً، ولكنها رأت

الكثير من الألعاب ومنضدة للتغيير في الزاوية وحفاظات. كما رأت صندوقاً بأدراج يحتوي على ملابس أطفال جميلة.

لم يكن لديها فكرة عن نظام حياة إلي، لكنها نزلت إلى الطابق الأسفل مرة أخرى وأعطتها آخر زجاجة في المطبخ بقرب الموقد.

لم تكن الساعة قد بلغت التاسعة بعد، لكن كاس قررت أن تنام باكراً، هي أيضاً. وهكذا، أطفأت الأنوار وعادت إلى الطابق الأعلى.

وضعت الطفلة في المهد، ثم أطفأت المصباح فوق رأسها وأضاءت المصباح الجانبي، فبكت الطفلة قليلاً محتجة. ولكن بدلاً من أن ترفعها من المهد، بقيت بجانبها تغني لها إلى أن ابتدأت عيناها تغمضان شيئاً فشيئاً.

ابتعدت كاس عنها لتأخذ حماماً ساخناً، ثم بدلت ملابسها فارتدت قميصاً استعارته من غرفة دراي. وبعد أن تفقدت إلي لآخر مرة وأطفأت مصباح مهدها، ذهبت إلى السرير في الغرفة الملحقة.

لم تبق مستيقظة مدة طويلة. فقد تعوّدت أن تنتهز أي فرصة تسنح لها للنوم. وبعد مضي لحظة على نومها، جلست فجأة في السرير، مدركةً واجبها. وبعد ذلك بثانية واحدة، تركت السرير مندفعة من خلال الباب إلى غرفة الحضانة.

ـ أنا هنا يا إلي.

تقدمت خطوتين من الطفلة الباكية وإذا بها تجفل فجأة. كانت الغرفة ما زالت غارقة في الظلام، لكن ضوء القمر المتسلل من خلال الستائر جعلها تميّز ظل شخص ينحني فوق المهد.

مضى جزء من الثانية ظنته فيها دخيلاً حقيقياً فتملكها الرعب.

لكن صوتاً هامساً قال لها: «هذا أنا يا ميلاني، درايتن كارليزل!».

تملكها الارتياح إنما لفترة قصيرة، إذ ساورها التوتر مجدّداً. وتابع قائلاً: «لقد أيقظتها مع الأسف، لم أعرف ما إذا كان عليّ أن أحملها».

كان يتكلم بلطف وبلهجة اعتذار نادراً ما سمعتها منه. فلطالما كانت علاقتهما حافلة بالمشاحنات.

ـ لست ميلاني!

وتقدمت تحمل ابنة أختها وتهدهدها بصوت منخفض: «هش.. أنا هنا.. أنا هنا..».

هتف دراي وهو يمد يده إلى المصباح يشعله: «أهذا أنت؟».

وعندما غمر الضوء الغرفة، قالت: «نعم، أنا».

ـ لا أصدق هذا!

لكنه صدّق.. ولم يكن مسروراً لهذا، وتقدم منها خطوة وسألها: «ما الذي تفعلينه هنا؟».

ـ حالياً، أحاول أن أساعد إلي على النوم مجدّداً.

وكان صراخ الطفلة يزداد ضراوة، فيما تابعت قائلة: «إلا إذا كنت تريد أن تفعل ذلك. وفي الحالتين، هلاّ خففت من عدوانيتك معي؟».

وقدمت إليه الطفلة، لكن ذلك كان مجرد إشارة ساخرة. فنظر إليها بعينين ثاقبتين قائلاً: «هذا مضحك، سأنتظر في الخارج».

ـ كما تريد.

ـ لا. ما أريده هو أن أذهب إلى السرير.

فهزت كتفيها. وقال وهو يخرج: «لا تخافي، أنا لا أعرض عليك شيئاً. بعد تسع ساعات في الطائرة لم تعد لديّ الطاقة».

فردت عليه بحدة: «لم أكن خائفة».

فهم كلامها عكس ما عنته، فوقف لحظة عند العتبة والتفت إليها قائلاً: «هذا شيء مشوّق».

حاولت أن تصحح له سوء فهمه فقالت: «لم أكن أعني...».

لكنه سار مبتعداً في الممر، فعبست. وطمأنت نفسها بأنه فهم ما عنته لكنه يريد فقط أن يغيظها.

بدا الأمر الآن جنوناً كاملاً. وجودها هنا في منزله من دون إذنه، ورعايتها لهذه الطفلة التي ربما هي ابنته. لا بد أنها مجنونة!

أخذت تذرع الغرفة بغضب. لكن إلي، على الأقل، ارتاحت لذلك،

فقد أخذ صراخها يخف تدريجياً وما لبث أن تلاشى واستسلمت للنوم.

أعادها إلى فراشها بحذر ثم أطفأت الضوء. لكنها لم تكن مستعجلة لمغادرة الغرفة. جلست على الكرسي الهزاز في الظلام وراحت تعد الدقائق، عشر.. خمس عشرة.. عشرون.. هل تكفي هذه المدة؟

لم يكن هناك صوت في الممر، أتراه فقد صبره؟ هل نزل إلى غرفته في الطابق الأسفل؟ انتظرت خمس دقائق أخرى لتتأكد قبل أن تعود على مهل إلى الغرفة التي كانت تنام فيها.

أغلقت الباب خلفها جيداً قبل أن تتلمس طريقها إلى السرير. وكادت تقفز من مكانها عندما أضاءت النور فوجدته جالساً على كرسي في الزاوية. اقشعر جلدها لوجوده هنا صامتاً في الظلام من دون أن تشعر به.

بدا مرتاحاً تماماً فبقيت واقفة، تسأله بشيء من البلاهة: «ماذا تفعل هنا؟».

ـ هذا بيتي. أنسيت أنني أسكن هذا؟

ـ قيل لي إنك في أميركا.

فقال وهو يتأمل أظافره: «أعتقد أنك لن تستمتعي بضيافتي إذا كنت أنا هنا.. منذ متى وأنت هنا..؟».

عبست، إنه يتهمها بأنها تغتنم فرص غيابه لتسرح وتمرح في بيته.

ـ لم أكن أنوي البقاء هنا، لكن زوج السيدة هندرسن كسر وركه، فاضطررت للبقاء مكانها.

ـ وماذا حدث لميلاني؟

ـ تركت العمل.

بدا الارتياب في عينيه وهو يقول: «ما الذي جعلها تغادر؟».

فقالت بشيء من التهوّر: «لا تنظر إليّ هكذا، فأنا لم أعرفها قط.. ربما شعرت بالوحشة لغيابك».

فبدا عليه التوتر وقال: «ما معنى هذا الكلام؟».

فقالت بازدراء: «فسّره كما تشاء!».

نظر إليها بترفّع، وأخطأت بمبادلته التحديق. تشابكت نظراتهما للحظة بدت من دون نهاية، وعندما وقف أخيراً واجتاز الغرفة، لم تتذكر موضوع الجدال بينهما. سألها بهدوء زائف: «هل تظنين أنني متورط معها بعلاقة؟».

لم ترد بشيء كيلا تجعل الأمور أسوأ، فعاد يقول: «هذا ما تظنينه، أليس كذلك؟ لديك فكرة سخيفة وهي أنني أغوي كل امرأة تعترض طريقي. لديك فكرة وضيعة عني.. أم عن نفسك؟».

فسألته بدورها: «ما معنى ذلك؟».

ـ إتهمتني أولاً بأنني نمت مع أختك، وجعلتها تحمل. ثم تلمّحين إلى أنني انتقلت إلى مربية مراهقة، وهي امرأة لا أستطيع تمييزها بين حشد من الناس. هل هناك امرأة أخرى ربما تحبين أن تتهميني بها؟ ربما السيدة هندرسن؟

ـ من يدري؟

ـ تماماً.. من يدري؟ الفكرة العامة هي أنني لا أميّز بين النساء، فما هو برهانك على ذلك؟

صمتت كاس للحظة تفكر بما قاله لها دراي. وتابع يقول: «هل هذا منطق، يا كاس؟ هل لديك دليل على التهم التي توجهينها إليّ؟».

ـ هذا أسخف ما سمعته في حياتي...

لم يهمها أن يشكل قولها هذا سبباً للشجار، لأن بإمكانها أن تواجه دراي كارليزل حين يغضب.

وانتظرت ابتسامة ساخرة منه، لكنه بقي جاداً للغاية، وهو ينظر إليها يريدها أن تتذكر حقيقة الأمر بينهما.

وكانت كاس تتذكر جيداً، فهي لم تكن بحاجة إلى عينين زرقاوين ثاقبتين تدعوانها إلى ذلك، ورغم غضبها منه، ما زالت تشعر.. بذلك الانجذاب البدائي الذي كان يقضي على أيّ شعور آخر.

وبدلاً من أن تلجأ إلى التعبير عن سخطها بالكلام، رفعت يدها

وصفعته على وجهه.

لم يتوقع ذلك، ولا هي أيضاً، فهي لم تصفع شخصاً قط من قبل. كان الهجوم مباغتاً: صوت الصفعة، الألم الحاد في راحتها، ارتداد رأسه إلى الوراء.

رأت أثر أصابعها على خده. وقبل أن يتحرك، تراجعت إلى الخلف. وعندما مد ذراعه نحوها، استدارت بذعر ثم هربت نحو الباب، لكنها لم تصل إليه لأنه أمسك بكمها يديرها إليه، فتمزق القميص. وكانت على وشك السقوط على الأرض لولا أن أمسك بها. لكن الاعتراف بالجميل لم يخطر ببالها وهو يسمّرها على الجدار. وحاولت أن تضربه من جديد لكن يديه اشتدتا حول معصميها كالفولاذ.

قالت له بغضب: «دعني أذهب!».

ـ لكي تضربيني مرة أخرى؟ لن أدعك.

ـ أنت الذي تسببت بذلك لنفسك.

فرفع حاجبيه وقال: «لأنني قلت الحقيقة؟ وهل مواجهة الحقيقة صعبة إلى هذا الحد؟».

أجابته بنظرة هازئة، وحاولت عبثاً، إفلات يديها من يديه.

وتصلب صوته قائلاً: «ما كان ينبغي أن يحدث ذلك. وأنت تعرفين ذلك».

ـ أعرف ماذا؟

ـ أن علاقتنا لم تكن علاقة مشاعر وأحاسيس.

ـ حقاً؟ وماذا كانت غير ذلك؟

ـ ماذا كانت غير ذلك؟ ألم تدركي أن دوافعنا ليست جسدية بل نتصرف بدافع الحب؟

ما الذي يقوله؟

هزت رأسها متعجبة فظن ذلك جواب نفي وقال: «لا، طبعاً لا!».

حاولت أن تقاطعه قائلة: «لم أقل قط..».

لكنه لم يدعها تكمل: «هل تتصورين أن هذا يصلح الأمور؟ حقيقة أنك لم تقولي شيئاً؟».

فقالت بيأس: «أنت لم تفهمني».

ورد بلهجة خشنة: «آه، نعم. صحيح أنت لم تقولي شيئاً، انتظرت حتى أغرمت بك، واعترفت لك بالحقيقة، ثم هربت، هربت من دون أن تقولي شيئاً. تركت أختك تخبرني ذلك بالنيابة عنك!».

حدّقت كاس إليه بعجب، هل أغرم بها حقاً، وأحبها كما أحبته؟ هل ذلك ممكن؟

وسواء أكان هذا ممكناً أم لا، فقد أصبح من الماضي. مات وانتهى. قال ببطء وهو يجذبها إليه: «لا تنظري إليّ هكذا، فأنت كنت تعرفين شعوري نحوك. جثوت أمامك على ركبتي، ومع ذلك لم تقولي شيئاً. لأن هذا ما يشعل أحاسيسك في الحقيقة، أليس كذلك؟».

كانت أنفاسه الحارة تلفح وجهها وانطوت ذراعاها على صدره.. لكنها لم تستطع أن تنطق بكلمة.

على أيّ حال، لم ينتظر منها جواباً وقال: «هذا الإحساس بالتأثير علي هو ما يهمك حين أعانقك. أنظري».

وعانقها بعنف، مبدداً أي احتجاج، قبل أن يتابع بصوت أبح: «إذاً، كيف ترين هذا يا كاس؟ حلو أم مر؟».

عادت كاس تهز رأسها، فهي لم تشأ أن تسلك هذا الطريق لأنه خطر للغاية. وقالت بصوت خافت وهي ترتجف: «ليس لي تأثير عليك».

ـ ليس لك تأثير عليّ؟

وجذبها إليه بعنف، فابتعدت عنه على الفور.

بلغ الحذر منها مبلغه، وسألها: «هل أنت خائفة؟».

تغلب كبرياؤها على تعقّلها فأجابت: «ولماذا أخاف؟».

وكانت هذه غلطة كبيرة، فقد اشتبكت عيناه الزرقاوان بعينيها، وشعرت بأنها تسمّرت في مكانها.

بذلت كل جهدها كيلا ترتجف عندما أخذت يده تلامس أسفل رقبتها.

حبست أنفاسها عندما رفع يده يزيح شعرها عن وجهها إلى الخلف، ثم لامس وجنتها.

كانت الإرادتان تتنافسان، وأدركت أنه المنتصر حتى قبل أن يمرر يده على وجهها، فتوقف قلبها عن الخفقان.

أغمضت عينيها وقالت: «لا تفعل!».

فهمس وهو يعانقها: «أنا مضطر لذلك».

لا أستطيع.. كانت صيحة في رأسها لم تنطق بها. على أيّ حال إنها كذبة، لأن باستطاعتها أن تجاريه بسهولة.

لم يكن مضطراً إلى إرغامها فمقاومتها تتلاشى مع أول لمسة رقيقة منه. تصرفت بسلبية في الثواني العشر الأولى، ثم تجاوبت معه بعجز بالغ، وتعلّقت به وهو يضمها بين ذراعيه.

وفجأة، رفع رأسه فسمعت كاس صوتاً آخر، صوت بكاء الطفلة. فقال لها دراي: «تجاهلي الصوت إلى حين».

وكان هذا توسلاً وليس أمراً، وعاد يعانقها.

حاولت كاس ذلك، لكن عندما ارتفع بكاء الطفلة، زادت صعوبة تجاهله.

وأخيراً تمتمت لاهثة: «آسفة، لا أستطيع!».

رفع رأسه إليها فرأى نظراتها الحائرة. أطلق شتيمة لكنه أذعن قائلاً: «أفهمك!».

وكان بكاء الطفلة قد علا مرة أخرى. ابتعد عنها فرفعت رأسها ووجدته ينظر إليها مبتسماً.

إنه يعرف تأثيره عليها. فقد بدا ذلك واضحاً.

هرعت إلى مهد إلي تحملها. وخيل إليها أنه سيبقى في الغرفة الملحقة، لكنه لم يفعل، فقد تبعها إلى غرفة الطفلة وأضاء المصباح. يبدو أنه لم يشأ أن تغيب عن نظره.

استقرت عيناه عليها، وهي تذرع الغرفة حاملة الطفلة تضمها إلى صدرها. حاولت أن تركز أفكارها على الطفلة، لكن ذلك كان صعباً، لأن رأسها ما زال يدور بسبب دراي.

عندما أوشكت إلي على النوم، أعادتها إلى سريرها ثم وقف الإثنان لحظة ينظران إلى الفم الجميل والأهداب الطويلة على الخدين الناعمين.

قال دراي: «إنها جميلة جداً، أليس كذلك؟».

ـ نعم.

فأضاف بنفس اللهجة المتأملة: «ربما هذا سيشكّل فرقاً».

فهمت كاس ما يعنيه، فالجمال يمكنه أن يفتح الأبواب والقلوب أيضاً. كلماته، على أيّ حال، أحدثت فيها قشعريرة مفاجئة وعاودتها حقيقة الوضع بينهما. انتقلت نظراتها منه إلى الطفلة فظهر الشبه العائلي في الجمال الأسمر واضحاً بينهما. وسألته: «لماذا يشكل ذلك فرقاً بالنسبة إليك؟».

أخفضت صوتها كيلا توقظ الطفلة، لكن لهجة الإتهام فيه لم تكن خافية.

وعندما عاد ينظر إليها، كان الغيظ مرتسماً على وجهه. هل تصوّر أنه إذا عانقها ستنسى أصابع الاتهام الموجهة إليه؟ هل يظنها بهذا الضعف؟

بقي صامتاً لحظة، هو ينظر مباشرة في عينيها، فسألها: «هل ما زلت تظنينها ابنتي؟».

بدا غاضباً وكأنه ينكر ذلك.

وأضاف بوضوح: «حسناً، إنها ليست ابنتي».

لقد جاء دور الإنكار، وكأن الأمور لا تحتاج إلى توضيح، يمكنها أن تعود وترمي بنفسها بين ذراعيه.

بدا واضحاً أن هذا ما ظنه، حين دار حول السرير ومدّ ذراعيه إليها.

لكنها تراجعت مبتعدة، مصممة على ألاّ تدعه يلمسها، لأنه إذا فعل، ستضيع مرة أخرى.

وقالت بعنف: «لا بد أنك تعتبرني حمقاء لأقبل كلمتك بسهولة».

جعله كلامها يجفل، فأرخى ذراعيه بينما استحالت شبه الابتسامة على فمه إلى خط غاضب. لم يعجبه أن تعتبره كاذباً، وأخيراً أجابها: «لا. بل أظنك جبانة، تختبئين من الحقيقة ومن مشاعرك الحقيقية، تهربين من أي شيء أو أي شخص لا تستطيعين مواجهته».

إنها مجرد كلمات، فلماذا آلمتها إلى هذا الحد؟ هل لأنه عنى ما قاله؟ أم لأنها صحيحة؟ أم لأنه، في النهاية، هو الذي تركها، إذ استدار على عقبيه وابتعد مغادراً الغرفة من دون أن يلقي نظرة إلى الخلف.

وعادت كاس إلى السرير، فاستلقت عليه متكورة، وهي تحاول، بيأس، أن تتجاهل الشوق الذي يعصر قلبها.

***

٨ ـ مغامرة وندم

ما حدث في اليوم التالي لم يكن متوقعاً. كان آخر ما فكرت فيه كاس قبل أن تستغرق في النوم، هو أن تسرع في مغادرة المنزل، ولم يمنعها من ذلك إلا احتياجات الطفلة الباكية.

ذهبت إلى سرير إلي ورفعتها منه قبل أن تنزل إلى الطابق الأسفل. لم يكن هناك أثر لدراي كارليزل، فشعرت، بالارتياح. جهزت الحليب للطفلة الباكية، ثم جلست في المطبخ ترضعها وهي تتأمل ملامحها، ظناً منها أنها لن تراها قبل مدة طويلة.

عندما نامت الطفلة، وضعتها كاس في العربة، وجلست تنتظر حضور دراي كارليزل، مفترضة أنه ما زال نائماً، بعد رحلته الطويلة بالطائرة.

مرت الدقائق، وإذا برنين الهاتف يقطع عزلتها الموحشة. رنينه المتواصل اضطرها لأن تجيب، لئلا تستفيق الطفلة.

وخاطبها صوت مألوف: «كاس؟».

مضت لحظة ظنت فيها أنه يتصل بها من الطابق الأعلى ليرى إن كانت قد غادرت المنزل. فأجابت: «نعم؟».

ـ أنا دراي.

ـ نعم.

تنهد بصوت عميق ثم سألها: «هل أخذت الورقة التي تركتها لك؟».

ـ الورقة؟

فأجاب: «نعم. وضعتها تحت بابك».

لماذا؟ ومتى؟ أتراه يخاف من مواجهة أخرى بينهما إلى هذا الحد؟ وأخيراً سألته: «أين أنت؟».

فأجاب: «في العمل. كان لديّ اجتماع الساعة الثامنة، ولم أستطع أن ألغيه».

لقد نسي أنه سهر حتى الساعة الثانية صباحاً، وأنه عاد لتوه من أميركا، وأنه ترك لها طفلة هي غير مسؤولة عنها.

وتابع يقول: «لا تقلقي! قريباً سترسل الوكالة من يستلم المهمة عنك».

- أي وكالة؟

- وكالة الحاضنات، سترسل واحدة على الفور.

- وهل تتوقع مني أن أجري لها مقابلة؟

فقال، وقد بدا واضحاً أنه لم يفكر في ذلك: «ماذا؟ بالطبع لا! فهي مضمونة من الوكالة، كل ما عليك أن تفعليه هو أن تسلميها الطفلة».

تسلّمها الطفلة وكأنها طردٌ بريدي! فكرت كاس في ذلك وهي تجيبه: «هل عليّ أن أجعل الحاضنة توقّع على استلامها لها؟».

- توقّع على استلامها؟ نعم إذا شئت رغم أنني لا أرى ذلك ضرورياً. اسمعي، سأتحدث إليك فيما بعد، عليّ أن أذهب لكي..

- حسناً، لن أعطلك عن عملك.

كانت تبتعد عن الهاتف عندما عاد إلى الرنين، فتجاهلته هذه المرة. بقي يرنّ حتى أيقظ الطفلة باكية، لكنها تجاهلته وحملت الطفلة، ثم خرجت تسير حول المنزل.

كان المنزل خالياً بحيث شعرت بأنها إذا ضحكت، سيتردد صدى ضحكتها ويخترق الصمت الخانق. لقد اختار دراي كارليزل هذه العزلة الرائعة، ولكن ماذا بالنسبة إلى إلي؟ هل ستكون وحيدة في هذه الغرف التي لا تنتهي؟ هل ستشعر بأنها غير محبوبة ومنسية؟ أم أن الثراء سيصلح كل هذه الأمور؟

لم تجد كاس أجوبة على تساؤلاتها، كل ما عرفته هو أنه عندما وصلت المربية، وهي فتاة شابة متوترة تعاني من زكام حاد، أدركت أن هذه الحياة ليست مناسبة لابنة أختها. رفضت كاس المربية وأعادتها إلى الوكالة، ثم أجرت اتصالاً هاتفياً، وصعدت إلى الطابق الأعلى حيث حزمت بعض الأشياء الضرورية في كيس، ثم أعدت زجاجتي حليب للرحلة. وعندما وصلت سيارة الأجرة، كانت جاهزة.

لم تفكّر في ما فعلته إلا بعد أن أصبحت في القطار المتوجه إلى لندن، وعندئذ كان الأوان قد فات. فركزت اهتمامها على رعاية إلي.

وعندما وصلت أخيراً إلى محطتها، كانت مرهقة، وشعرت بشيء من الراحة عندما نامت إلي في طريقهما إلى البيت.

لم يكن لديها سرير للطفلة، طبعاً، ولا لعب، ولا نقود لشراء مثل هذه الأشياء. نظرت في أرجاء بيتها الرث ثم ذكرت نفسها بالسبب الذي جعلها تحمل إلي معها. فقد تصورت المربية وهي تسعل وتعطس، كما تصوّرت عدم مبالاة دراي كارليزل الرجل الذي أمضى حياته حريصاً على تجنب الزواج والأطفال.

وفي الوقت نفسه، سمعت صوتاً يهمس لها، معدداً الأشياء التي خسرتها ابنة أختها. المنزل الكبير، التعليم الخاص، الألعاب والملابس والهدايا، وكلها أشياء تعوّضها عن خسارة أمها.

وقالت تحدث نفسها بصوت مرتفع: تلك الأشياء ليست مهمة. لكنها لم تكن مقتنعة بذلك، فماذا بإمكانها أن تقدم لها؟ الحب؟ لم تكن بارعة من هذه الناحية. الأسرة؟ إنها الوحيدة الباقية من أسرتها. وماذا لو ماتت؟ المستقبل؟ ما الذي فعلته؟ ونظرت إلى ابنة أختها النائمة، وبدأ كل شيء يتضح لها. لم تفكر في الأمر من كافة النواحي. كان تصرفها مجرد ردة فعل، كما تفعل دوماً عندما يكون دراي بقربها، وما عليها الآن إلاّ أن تتحمل العواقب.

فتحت بريدها الذي وجدته أمام الباب، لصرف ذهنها عن التفكير

بالخطأ الفادح الذي اقترفته، لكنه زاد الطين بلّة. فالبريد ليس سوى «فواتير» وكشوف حساب عن الديون المستحقة عليها منذ كانت تلميذة. أدركت بأن عليها أن تعمل لتسدد كل المستحقات المتوجبة عليها. لكن، كيف يمكنها أن تبدأ، بعد أسبوع من اليوم، والطفلة في عهدتها؟

لم ترَ أمامها طريقاً سهلة. لقد عملت بجهد بالغ لكي تصبح طبيبة، ولكن من المستحيل أن تكون طبيبة وأماً من دون زوج! عليها أن تختار بين الطفلة ومهنتها.

***

لم تكن قد حددت خيارها حين حلّ الغروب، وسمعت رنين جرس الباب. أدركت كاس أن الطارق هو دراي، فقد اتصل بها في الخامسة، وجرى بينهما أقصر حديث ممكن.

عندما رفعت السماعة، قال لها: «كاس؟».

فأجابت: «نعم».

ـ هل هي معك؟

ـ نعم.

ـ حسناً.

وأقفل الخط من دون مزيد من الإيضاح، وتركها تفسر كلمة (حسناً) كما تشاء. فهي إما تعني (حسناً) بمعنى هذا حسن ويمكنك الاحتفاظ بها، وإما (حسناً) أنا قادم لآخذها.

لم يكن ثمة فائدة من الهرب، فبإمكانه أن يدركها أينما ذهبت. وهكذا جلست تنتظر لترى ما سيحصل.

دفعتها صحوة ضمير أو نوبة جنون إلى اصطحاب إلي معها إلى بيتها، ولكن هل أرادت أن تحضرها إلى هنا حقاً؟ هل نسيت سنوات الدراسة تلك، والكفاح، والفشل في رعاية بين، والعمل في أماكن مختلفة لتأمين قوتهما اليومي. كانت حياتها حياة ملؤها المشاكل، فهل تريد الآن أن تكررها، وأن

تفرضها على شخص آخر؟

لا..

لم تكد تصل إلى الباب حتى قرع دراي الجرس مرة أخرى، ففتحت له الباب ودعته إلى الدخول. يبدو أنه فوجئ بذلك. ربما تصوّر أنه سيكون عليه أن يحطم الباب.

سألته من دون تمهيد: «هل جئت لأجلها؟».

ازداد وجهه عبوساً: «ولماذا إذاً؟».

فقالت: «سأحضرها».

وعندما سارت مبتعدة، امتدّت يده تمنعها: «انتظري لحظة».

لم تجد خياراً آخر، فقد غرز أصابعه في أعلى ذراعها ما كشف عن غضب مكبوت.

فأجابته بهدوء: «لا أريد الشجار!».

فقال بخشونة: «أتظنينني أهتم لما تريدين؟ بقيت شهرين حتى جئت لتري ابنة أختك. وإذا بك تأتين فجأة وتتصرفين بشكل غريب... وكل هذا مجرد مباهاة، أليس كذلك؟ هل سئمت بعد يوم واحد فقط؟».

احمر وجهها وهي تحاول أن تفسر عملها: «أعلم أنني تصرفت بجنون، وربما لديك الحق في أن تنزعج..».

فثارت أعصابه: «أنزعج؟ هذا لا يعبّر تماماً عن حالتي. ما الذي جعلك تعبثين بهذا الشكل وتطردين تلك الفتاة..؟».

فقاطعته قائلة: «لم تكن مناسبة!».

فقال ساخراً: «حقاً؟ وعلام استندت في حكمك عليها؟».

كان التهكم يقطر من صوته وهو يعلّق على مواجهتها القصيرة مع المربية المؤقتة. فردت عليه كاس بنفس لهجته: «سألتها ماذا تفعل إذا اختنقت إلي وتوقفت عن التنفس، هذا كل شيء. وكانت تعاني أيضاً من زكام حاد، والأطفال سريعو التأثر بعدوى الجهاز التنفسي».

ـ تبدين وكأنك كتاب متحرك. على أيّ حال تلك هي حدود معرفتك

بالأطفال، أليس كذلك؟

كانت كاس قد عملت حاضنة أطفال لتكسب مصروفها الخاص طوال سنوات مراهقتها. فقالت: «لا، أبداً».

ضاقت عيناه وهو ينظر إليها بارتياب: «هل كان ذلك صحيحاً إذن؟».

- ما هو الذي كان صحيحاً؟

- ما قالته أختك عن أنك أنجبت طفلاً وأنت مراهقة؟

فصرخت كاس: «ماذا؟».

- كما قلت لك!

وكانت قد سمعته فعلاً، لكنها لم تصدق. وعادت تسأل: «هل ادعت بين أنني أنجبت طفلاً؟».

- لم تتحدث عن ذلك كثيراً، ولكنها ألقت بهذه الملاحظة، عندما أنهيت علاقتنا.

لم تشأ كاس أن تدع الأمر يمر بسلام، فقالت: «لكنني لم أنه العلاقة!».

فقال بازدراء: «لا، لم تكوني شجاعة إلى هذا الحد، بين هي من قالت لي إن تجاربك مع الرجال جعلتك لا تثقين بهم البتة».

قطبت كاس جبينها. قالت شيئاً كهذا لأختها منذ سنوات، لكن لماذا ذكرت بين هذا لدراي؟

- لا أدري إذا تحدثت عن تجربة شخصية لك، لم أكن أريد أن أعرف حينذاك.

وافترضت كاس أنه لم يرد أن يعرف لأن ذلك يناسبه. فقد كان مستعداً لأن يتركها. وهكذا استغل بضع كلمات قالتها بين، ليجد لنفسه عذراً.

فقالت تتهمه: «لم أكن قط من النوع الذي يعجبك بين النساء، أليس كذلك؟».

فهزّ كتفيه، وقال: «ربما هذا صحيح، ولكن هل كان لديك طفل حقاً؟».

توهج وجهها احمراراً، وشعرت بالحاجة لأن تبرئ نفسها، ولكنها

عادت وتذكرت الوعد الذي قطعته لتوم بألاّ تخبر دراي بحمل بين الأول.

وقال هو يجيب نفسه: «أفسّر سكوتك بأنه نعم. ماذا حدث له؟».

فأجابت: «لقد مات».

أقرّت بحقيقة واقعة، لكن صوتها خانها، فهي لا تزال حزينة على تلك الطفلة.

وشعر هو أيضاً بذلك، وأدهشها بقوله: «أنا آسف».

هزت رأسها. لم تكن بحاجة إلى تعاطفه، فهو تظاهر زائف، وتملكها الارتياح وهي تسمع صوت بكاء الطفلة من المطبخ، وقالت: «هذه إلي!».

بقي ممسكاً بذراعها برفق، وعندما حاولت أن تبتعد عنه، شدّد قبضته لحظة قصيرة وكأنه لا يريدها أن تذهب. لكن صراخ إلي اشتد، فأرغمه على تركها.

وقفت كاس للحظة مرتبكة، ثم استدارت وأسرعت إلى المطبخ.

رفعت كاس الطفلة لكن هذه استمرت بالصراخ.

كان دراي ينظر إليهما من عند عتبة الباب، فشعرت كاس برغبة في أن تناوله الطفلة الباكية، لكنها لم تكن واثقة من أنه سيفيدها في شيء.

وبدلاً من ذلك، حاولت أن تتجاهله، وأخذت تهز الطفلة بين ذراعيها حتى هدأت.

فقال دراي: «أنت تجعلين هذا يبدو سهلاً».

قد يكون هذا مديحاً، لكن كاس لم تشأ أن تعتبره كذلك، فسألته: «هل أحضرت معك مقعد سيارة لها؟».

قطب جبينه ثم أومأ قائلاً: «لـمَ أخذتها، يا كاس؟».

- ظننت أن بإمكاني أن أعتني بها، لكنني لم أكن واقعية. فهناك ديون متوجبة عليّ منذ كنت في الجامعة. وبعد أسبوع سأبدأ تدريبي كطبيبة أسرة. لا يمكنني أن أعتني بها، وأن أعمل في الوقت نفسه، وإذا لم أعمل، فهل ستشكرني عندما تكبر لأنني أخذتها وحرمتها من كل ما بإمكانك أن تعطيها؟

استقرت عينا دراي على الطفلة النائمة بين ذراعي كاس، وأجاب

بهدوء: «من الصعب أن نقول ما هو الأفضل على المدى الطويل».

ـ حسناً، على المدى القصير عليك أن تحضر لها مربية، مربية تبقى معها في سنواتها الأولى، إنها بحاجة إلى بعض الاستقرار في حياتها.

ـ هذا صحيح. لكنني كنت أنتظر إلى أن يتدبر توم أمره.

فقالت بعجب: «توم؟ ظننته غير مهتم!».

فارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة، وقال: «أردتني أن أكون النذل في القصة، أليس كذلك؟ حسناً.. آسف لتخييب ظنك، ولكن توم هو والد إلي».

ـ وهل هذا مؤكد؟

ـ تماماً. لدي فحص الدم لإثبات ذلك.

أرادت كاس أن تصدق ذلك، فهي لم تشأ قط أن تنسب إلي إلى دراي كارليزل.

ـ ظننت أنه رفض فحص الدم.

ـ لقد أقنعته.

دلت لهجته الفاترة على أنه يخفي أكثر مما يقول، ما جعل كاس تتساءل عن وسيلة الإقناع التي استعملها معه.

ـ وهل سيرعى إلي إذن؟

ـ هذا ما سنتطرق له، فتوم يقرن إلي بأختك وهو ما زال مقتنعاً بأنها لم تكن مخلصة له حتى وفاتها.

فسألته تريد الحقيقة: «وهل كانت كذلك؟».

فأجاب ببطء: «هذا ممكن».

فهمت كاس جوابه على هواها. واكتشفت أن الحقيقة مؤلمة حقاً، وجاهدت لكي تتمالك نفسها.

ـ هل هناك شيء آخر تريدين أن تسألي عنه؟ هوية الرجل، مثلاً؟

كان يسخر منها، لأنهما يعرفان هوية الرجل، لكنه أراد فقط أن يلوي السكين في جرحها لكي يؤلمها أكثر. ربما يريد أن يثأر من الماضي.

فهزت رأسها وقالت: «لا، لا أظن ذلك!».

توتر فمه، أتراها أفسدت تسليته؟ وعاد يسألها: «أنت تعرفين كل شيء، أليس كذلك؟».

فأجابت: «بقدر ما أحتاج معرفته».

لم تكن كاس تريد تفاصيل عن علاقته بأختها. فقد بدا لها ذلك أمراً مؤلماً.

ـ لقد حزمت كل حاجيات إلي، وهي على مائدة المطبخ.

كان واضحاً أنها تستعجله الرحيل، لكنه لم يبد في عجلة من أمره، فسألها: «وحاجياتك أنت؟».

ردت بعجب: «حاجياتي؟».

فأجاب: «نعم، أظنك ستحتاجين بعض الملابس».

فقالت: «آسفة؟».

شعرت بأنها لم تعد تفهم شيئاً.

ـ ستعودين معنا إلى منزلي.

كان هذا قراراً وليس سؤالاً. أيظن حقاً أن بإمكانه أن يملي عليها أوامره؟

نظرت إليه ساخطة، فقال لها: «أريحي نفسك. هذا من أجل إلي، وليس من أجلي، إلى أن أعثر على مربية جديدة توافقين عليها أنت».

ـ لا أستطيع الذهاب معك.

ـ ولِمَ لا؟

ـ علي أن أحزم أمتعتي ثم أنتقل قبل أن أبدأ عملي الجديد.

سألها: «أين هو المركز الطبي؟».

ـ في سلوف.

ـ إنه قريب من منزلي، ولدي سيارة رياضية صغيرة يمكنك أن تستعمليها.

ضحكت بجفاء. هل يتصور حقاً أنها تريد أن تذهب إلى عملها الجديد

في سيارة رياضية؟

ـ لم أكن أظنك ستطلب مني العودة إلى منزلك.

ـ ما أريده أنا لا علاقة له بالموضوع، لديّ طفلة صغيرة من دون مربية. ولا أعرف كيفية إطعامها وغسلها وتغيير حفاظها.

ـ وماذا بالنسبة إلى السيدة هندرسن؟

ـ أخذت عطلة. فيما أنت تحزمين أمتعتك، سآخذ حاجيات الطفلة إلى السيارة ثم أعود مع مقعد السيارة.

أخذته كاس إلى المطبخ حيث حمل عربة الطفلة وكيس حاجياتها وعاد إلى الردهة. فتبعته إلى الباب الخارجي وإلى بين ذراعيها، وبقيت تنتظره حتى عاد مع مقعد الطفلة.

قالت له بقنوط: «هناك كاميلا كارليزل».

ـ أنت محقّة، لكن يبدو أن شخصاً ما أغضبها.

فقالت كاس: «نعم، لأنها كانت فظة للغاية معي. رغم أنني أعرف أنك لن تصدّق ذلك».

فأدهشها بقوله: «بل أصدق ذلك، فكاميلا تشعر بالعداء لشقيقتك وأتصور أن ذلك الشعور تحوّل نحوك».

ـ آه، فهمت.

ولم تشأ أن تجازف في معرفة أسباب ذلك.

ـ هلاّ حزمت أمتعتك بينما أحمل أنا الطفلة.

كان بإمكان كاس أن ترفض. ماذا بإمكانه أن يفعله لها على كل حال؟ لكنها فكرت بما لا يمكنه أن يفعله للطفلة.

وقالت وهي تعطيه الطفلة: «سأحزم ملابس ليوم أو يومين، انتبه كيف تسند رأسها وأنت تحملها».

فأجاب وهو يأخذها: «هذا ما أعرفه».

ترددت كاس لحظة قبل أن تصعد السلم. لكنها سمعت إلى فجأة تبكي، وتناهى إلى مسمعها صوت رجل. فعادت بسرعة تهبط السلم،

ووجدت دراي يحاول أن يقوم بأي حركات مضحكة ليسلّي الطفلة.

وعندما رآها، سألها: «هل أنت جاهزة؟».

فأجابت: «نعم».

وضع الطفلة في مقعدها وثبّتها فيه، ثم أخذ من يدها الكيس وبقي ينتظر منها أن تتقدمه في الخروج من البيت. لم يمنحها الفرصة لتغلق الباب في وجهه، إذا كانت تفكر في ذلك.

سارت معه كارهة نحو سيارته. وصعدت في المقعد الأمامي بينما أخذ يثبت مقعد الطفلة في السيارة.

وضع حزام الأمان ثم طلب منها أن تضع حزامها. لكن الشكوك بقيت تساور كاس، فقالت: «إسمع، لا بد أن هناك من يمكن أن تساعدك على العناية بإلي، ماذا بالنسبة إلى الصديقات؟».

ـ صديقات أختك؟

ـ لا، بل صديقاتك.

فرفع حاجبه ساخراً وقال: «صديقاتي؟ ما الذي جعلك تظنين أن لدي صديقات؟».

فأجابت بخشونة: «أنت غني، والأغنياء لا تنقصهم الصديقات على الإطلاق».

زم شفتيه قليلاً لهذه الإهانة ثم قرر ألاّ يتأثر بها، فأجابها ببطء: «حسناً. لا بد أن حالتي محزنة، مال كثير ولا أزال من دون صديقة، ربما عليّ أن أضع إعلاناً في صحيفة أقول فيها (رجل بالغ الثراء لكنه غير جذاب. يبحث عن باحثة عن الذهب لأجل علاقة غير مخلصة ولا معنى لها) ما رأيك؟».

لم تعبأ بالرد عليه، فأنهى كلامه قائلاً: «لقد عانيت منهن ما يكفيني الحياة كلها».

مال نحوها فجأة، فأجفلت قليلاً وما لبثت أن شعرت بحماقتها حين وضع الحزام حولها وأقفله.

انتظر حتى ابتعد عن الرصيف، ثم قال: «إذا خفت أن يكون تصرفي هذا جزءاً من خطة كبرى لإغوائك، فدعيني أزيل الوهم من رأسك! أنا لا أنوي أن أستغل فرصة رقاد الطفلة لأقضي الوقت معك. ما حدث الليلة الماضية كان.. كان غلطة».

فردّت كاس بسرعة وقد لذعتها الإهانة: «غلطة؟ حسناً، شكراً، هذا يجعلني أشعر بتحسن كبير».

نظر إليها لحظة، وكأن عينيه الزرقاوين تتساءلان عن سبب استيائها. ألم يعدها لتوّه بأن يكون مهذباً معها؟

ثم قال: «كل ما أفعله لا ترينه صواباً، يا كاس.. لماذا؟».

هزت رأسها رافضة الجواب، وكيف يمكنها ذلك، وهي لا تفهم حتى مشاعرها المتناقضة؟

توقفا بعد ذلك عن الحديث، فانشغل كل منهما بأفكاره، وعادت كاس بالذاكرة إلى نهاية علاقتهما.

كانا قد تواعدا في منتصف الأسبوع على الذهاب إلى مطعم، وأسرعت إلى البيت بعد عملها، لكي تغتسل وتبدل ملابسها. وكانت تمشط شعرها عندما جاءت بين، من دون سابق انذار.

كانت قد عادت لتوّها من شهر العسل، فمرّت بلندن لتعرف ما تفعله كاس وهي تخرج مع شقيق زوجها.

بقيت كاس هادئة، لا مبالية، وهي تواجه غضب أختها المفاجيء. كان شعورها نحو دراي قد طغى على كل اعتبار آخر.

لم تكن تريد أن ترى كاس تتألم. إن دراي كارليزل ساحر للغاية، لكنه سرعان ما يسأم فتاته ويتملكه الضجر.. إنه لا يبقى مع الفتاة نفسها مدة طويلة. هل تصورت كاس أنها ستكون مختلفة عن غيرها؟

كانت كاس بالكاد تصغي إليها، فهي واثقة من أن ما بينها وبين دراي غير عادي وعندما وصلت سيارة الأجرة، اختطفت معطفها وحقيبة يدها وتركت بين وحدها.

وعندما لم يأت دراي إلى المطعم، افترضت كاس أولاً أنه تأخر. فانتظرت وانتظرت. مرت ساعة ولم يأتِ، فأخذت تراقب الباب إلى أن اضطرت في النهاية إلى تقبل فكرة أنه لن يأتي.

عندها فقط، أخذت تتساءل. هل حاولت بين أن تخبرها بشيء؟ ذهبت إلى بيتها وهي تفكر بكلمات بين، وعندما وصلت إلى البيت كانت الساعة قد دقت العاشرة. لكنها وجدت بين هناك.

قالت باختصار: «دراي لم يأت. هل اتصل؟».

فعبست بين: «آسفة يا كاس. كنت أنوي أن أبلغك الرسالة، لكنك اندفعت خارجة. طلب مني دراي أن أبلغك أنه لن يستطيع الحضور».

بدا الاستياء على كاس وقالت: «آه، يا بين! هل هو مريض؟ ربما ينبغي أن أتصل به».

فقالت بين: «لا، لن تجديه. فقد سافر».

- سافر؟! إلى أين؟

- إلى باريس.

- في رحلة عمل؟

وكانت تتمنى أن تقول لها أختها نعم. وترددت بين، ثم هزت رأسها.

رأت كاس العطف على ملامح بين ففهمت وقالت: «إنه مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟».

أومأت بين برأسها هذه المرة فشعرت كاس بعالمها يتحطم. لم تسأل بين عن التفاصيل، فهي لا تستطع احتمال سماعها. وعندما قالت بين إنها ستمكث عندها، ذهبت دراي إلى فراشها لتخفي آلامها.

كانت هذه أول مرة تبكي فيها وحدها في غرفتها. وعندما ذهبت في الصباح إلى عملها، كانت عيناها حمراوين.

أمضت بين الأيام القليلة التالية معها في لندن. كان توم خارج البلاد في رحلة عمل، ولم تشأ بين أن تذهب إلى بيت خالٍ. لم ترغب كاس بأن تفضي بمشاعرها إليها، خصوصاً وأنها لم تكن واثقة من أنها ستكتم السر. ولكن

ربما أدركت بين مبلغ كدرها، فتصرفت بشكل غير معتاد من الاهتمام.

عندما اقتربت العطلة الأسبوعية التي كانت تنوي أن تمضيها مع دراي، في «نورث دين»، اقترحت عليها بين أن تزور ابنة عم أمهما في يوركشاير.

رحبّت كاس بالفكرة، فأخذت عطلة. وعندما عادت أخيراً إلى لندن، كانت قد طوت صفحة دراي كارليزل.

لم تتوقع أن تسمع صوته مرة أخرى، لكنه اتصل بها بعد انفصالهما بأسبوعين. شعرت بالألم، لكن حبها له زال. قال لها: «كاس، علينا أن نتحدث».

وذلك من دون أدنى ندم في صوته.

فأجابت: «لا حاجة لذلك!».

ثم وضعت السماعة.

إنها تتساءل الآن عما إذا كان رفضها التحدّث إليه هو ما جعله يتهمها بأنها هي التي أنهت علاقتهما. هذا هراء طبعاً، فقد أنهاها هو بسفره إلى باريس مع فتاة أخرى.

عندما تتذكر ذلك، وما سببه لها من ألم، تقوى عزيمتها وإصرارها على عدم التورط معه في علاقة.

أبعدت كاس عن رأسها ذكريات الماضي، ثم أخذت تحدق إلى ظلام الليل فيما مطر الصيف ينهمر بعنف على زجاج السيارة الأمامي. لم تدرك أنهم وصلوا إلى «نورث دين» إلا بعد أن تحوّل صاعداً إلى طريق المنزل.

توقعت منه أن يتركها حالما يدخل الأكياس إلى الداخل، لكنه لم يفعل. فقد اعتنى بإلي أثناء إعدادها بعض زجاجات الحليب لها في المطبخ، ثم أخذ يراقبها وهي تطعمها آخر وجبة لها ذاك النهار.

تظاهرت كاس بأنها غير منتبهة إليه، حتى وهي تفكر بما يجول في خاطره. أتراه يسأل نفسه كيف أمكنه أن يتورط مع فتاة مثلها؟ أو لعله يراقبها ليعرف إن كانت تجيد رعاية إلي؟ على أيّ حال، لا بد أنه يفترض أنه كانت لها طفلة وماتت.

تمنت لو أنها صححت له معلوماته، ولكن يبدو أن وقت إنكار ذلك قد فات.

وأخيراً قالت، حين لم تعد تحتمل عينيه الزرقاوين اللتين تحدقان فيها: «سأصعد إلى غرفتي».

فقال من دون أن يتحرك من مكانه: «تصبحين على خير».

كان ذلك تكراراً لليلة الماضية، لكن هذه المرة، ستبقى مستيقظة، تصغي إلى أصوات الليل، وترى ما إن كانت ستسمع صوت خطوات خارج بابها.

تصورت في البداية أنها كانت خائفة من ذلك. ولكن عندما تحوّلت الثواني إلى دقائق ثم ساعات، أدركت أنها ستُترك وحدها.

وأخيراً، توقفت عن الكذب على نفسها وواجهت الحقيقة. لقد أحبت دراي كارليزل منذ ثلاث سنوات، أحبته رغم كل منطق وتعقل. ومنذ ثلاث سنوات حتى الآن، لم يتغيرّ شيء.

* * *

٩ ـ اللقاء

لكنه لم يتحرّش بها. وقد سنحت له الفرصة عندما طالت إقامتها في منزله أسبوعاً، فاثنين، أثناء التفتيش عن مربية دائمة. ولكن يبدو أنه فقد اهتمامه بها بين ليلة وضحاها.

ويا لسخرية القدر! عندما أيقنت أخيراً أن شعورها نحوه ما زال على حاله منذ ثلاث سنوات، اكتشفت فجأة أنه لم يعد يبادلها ذاك الشعور.

عليها أن تكون شاكرة لذلك، فقد تحطمها علاقة أخرى معه. ولكن من الصعب أن تتقبل ذلك بكل سهولة.

تذكرت دراي الذي أحبته، ذاك الرجل الذكي الظريف المثير.. الرجل الذي يجعلها تجنّ وتضحك في الوقت نفسه. سألت نفسها عن سبب تغيّره؟ هل طلب منها أن تأتي لمجرد الحاجة إليها فقط؟ لقد وجد حاضنة مؤقتة، وممرضة أطفال ناضجة، لكي ترعى إلي أثناء النهار. لكن الليل بقي من اختصاص كاس، ولحسن الحظ، كانت إلي تنام الليل، وإلا لما استطاعت كاس أن تواجه تلك الأيام الطويلة الشاقة في المركز الطبي حيث تتدرب.

كان بإمكان كاس أن تترك المنزل، طبعاً، فقد مكثت مدة أطول من التي اتفقا عليها. لكن يبدو أن هذا النمط من العيش يلائمها، فالوصول إلى العمل يتطلب أقل من ساعة. وكانت كاس واثقة من أنها وجدت طريقها الحقيقي. ورغم انشغالها البالغ أثناء النهار، إلاّ أنها كانت تجد ما يكفي من الطاقة في الليل للعناية بإبنة أختها وللّعب معها قبل أن تضعها في مهدها. وكانت تتناول العشاء مع دراي، فيتحدثان وكأنهما صديقان، لكن المشكلة

الوحيدة التي عانت منها هي القدرة على إخفاء مشاعرها.

وأثناء ذلك، أجريا مقابلات لمربيات عدة، لكنهما لم يجدا أياً منهن مناسبة. وشيئاً فشيئاً اكتشفت أن دراي لا يحب أن يكون مغفلاً.

فقالت: «حسناً، دعنا نر إذن. نحن نريد امرأة شابة ولكن ناضجة، دافئة المشاعر ولكن ليست عاطفية ومفرطة في الجد. نريدها مستعدة للبقاء مدة غير محدودة كأم بديلة لإلي وتحترم مركزك بين أفراد المنزل. أتراني أغفلت شيئاً؟».

لمس السخرية في صوتها، ومنعته صداقتهما المتبادلة من أن يغضب، فضحك وقال: «لا. لقد ذكرت كل شيء تقريباً، هل أطلب الكثير؟».

ـ نوعاً ما، خصوصاً أنك لا تعرض عقداً دائماً.

ـ لا أستطيع هذا قبل أن يقرّر توم ما يريد أن يفعل.

ـ هذا صحيح.

أدركت أن توم عاد إلى العمل، لكنه لم يزر حتى الآن الطفلة التي بات يعلم أنها ابنته.

ـ متى رأى الطفلة لآخر مرة؟

ـ بعد ولادتها بيوم واحد.

ـ ربما لم تعد موجودة بالنسبة إليه.

ـ هذا ممكن.. لكنه يرفض بشكل قاطع أن يأتي إلى هنا.

فقطبت جبينها وقالت: «ظننتكما تصالحتما».

ـ ليس تماماً! ما زال توم يظن أني كنت على علاقة بزوجته.

انقبض قلب كاس، فقد تجنّبت مؤخراً التفكير بهذه القصة.

وكان هو يتأملها بإمعان فسألها: «وماذا بالنسبة إليك؟ ماذا تظنين».

لم تعد كاس واثقة من شيء. أخيراً قالت: «لا أدري».

ـ ما زلت مذنباً حتى تظهر براءتي، حسناً، لا تنتظري مني أن أدافع عن نفسي.

ولم لا، لأنه لا يستطيع؟ أم لأنه لا يريد ذلك؟ نظرت إليه مستفهمة،

لكنها عادت وحوّلت نظراتها عنه بعد أن خافت أن تفضح تلك النظرات شعورها نحوه.

تمتم بصوت منخفض، ثم وقف وسار نحو الباب قبل أن تدرك غرضه. فقالت: «ما زال أمامنا فتاة أخرى علينا أن نقابلها».

ـ قومي أنت بذلك، فأنا لا يمكن الوثوق بي.

ـ لم أقل..

لكنه غادر الغرفة مغلقاً الباب خلفه بشيء من العنف، بينما بقيت تحاول أن تستنتج سبب موقفه هذا. فهو، إما ممثل بارع، وإما لم تكن بينه وبين أختها علاقة قط.

لم تعد كاس تفهم شيئاً من تصرفات درايتن.

عندما رأت دراي كارليزل أوّل مرّة كان اهتمامه منصباً على أخيه وعلى المرأة التي سيتزوجها. والمرة الثانية كانت أثناء العرس، ورغم تحفّظه تظاهر بالابتهاج من أجل أخيه، ثم طلب من كاس القدوم إلى الجنازة بالنيابة عن توم وطلب منها البقاء لأجله، أيضاً. الآن ها هو يرعى الطفلة، بالنيابة عن أخيه إلى أن يستعيد هذا الأخير قدرته على العمل.

بدا وكأنه يقوم بأي شيء لحماية أخيه الأصغر، فلماذا تصورت أنه قد يقدم على أذيّته؟ وهل كانت بين مغرية إلى ذلك الحد بحيث لم يستطع مقاومتها؟

افترضت كاس أن هذا سبب غيرتها هي. وحدثها المنطق بأن دراي كارليزل لا يمكن أن يقيم علاقة مع زوجة أخيه. لكن، هل حدث ذلك فعلاً؟

أخذ هذا السؤال يدور في ذهنها إلى أن ظهرت الفتاة التالية التي تقدّمت لوظيفة الحاضنة.. وبقي بعد ذلك يراودها حتى اتصل دراي.

أرادت أن تصلح الموقف بينهما فقالت: «دراي، إسمع، بالنسبة لما حدث...».

لكنه قاطعها بلهجة عملية جافة قائلاً: «لقد وافق توم أخيراً على أن

يرى إلي. سأرسل سيارة، هل يمكنك، أنت أو جيل، إحضارها إلى المكتب الرئيسي؟».

ـ أنا.. نعم بالطبع!

كان صوته بارداً، ووضع السماعة قبل أن تعاود الكلام. لم يكن لدى كاس ما يكفي من الوقت لكي تشعر بالاستياء، إذ اندفعت لتساعد جيل، ممرضة إلي، في غسل الطفلة وتغيير ملابسها، وإلباسها أحلى ثوب من أجل المقابلة الأولى مع أبيها. كل هذا جعل الطفلة تتعب، فاستغرقت في غفوة قصيرة. وقد رافقتها كاس بينما بقيت جيل في المنزل.

لم يحدث أن زارت كاس شركة كارليزل للأجهزة الإلكترونية من قبل.

وعندما دخلت السيارة إلى الموقف، أيقظت الطفلة برفق. ولحسن الحظ تركتها هذه الغفوة ترتاح، فاستفاقت باسمة.

تبعت كاس السائق إلى الداخل، وهي تحمل الطفلة بين ذراعيها. توجهوا إلى مصعد كتب عليه (خاص)، فصعدوا إلى الطابق الرابع، ثم ساروا إلى مكتب حيث كانت تجلس امرأتان خلف مكتبيهما.

أشارت إحدى الامرأتين للسائق قبل أن تتصل وتقول: «لقد وصلت الضيفتان يا سيد كارليزل».

ـ حسناً، أدخليهما يا جوان. بإمكانكما، أنت وكارول، أن تنصرفا.

خرجت جوان من خلف مكتبها، وهي تبتسم لكاس والطفلة، ثم أشارت إليها بالدخول من باب كتب عليه (درايتن كارليزل المدير التنفيذي).

وجدت كاس نفسها في مكتب فسيح تطل نوافذه الزجاجية على منظر عام للمدينة.

وقف الرجل خلف المكتب وقال رافعاً حاجبيه: «ظننت أنك ستتركين هذا الأمر لجيل؟».

فهزت رأسها قائلة: «لقد وعدت جيل بأن أدعها تنصرف قبل الرابعة. أين توم؟».

فقال وهو يميل ليتصل بأخيه: «في مكتبه. توم!».

فأجاب هذا: «نعم».

ـ الأرقام جاهزة.

ـ حسناً، أنا قادم.

أقفل دراي الهاتف، قبل أن تجد كاس فرصة لتفهم الحديث، فقالت تسأله بشيء من الذعر: «ألا يعلم بأنها هنا؟».

ـ لا.

ـ وهل تعتقد أن هذا التصرف حكيم؟

ـ أوافقك على أنها مجازفة، لكنني أظن أن الوقت حان لإيجاد حل للأمور.

أخذت كاس تكوّن صورة ذهنية لخطته هذه. إعادة شمل الأب والطفلة.. وهكذا يسلّم المسؤولية إلى شخص آخر، فيستغني عن خدمات كاس في حياته. وقبل أن تسأله عما إذا كانت رغبته في الخلاص منها هي ما جعله يفعل كل هذا، انفتح الباب خلفها.

استدارت كاس وهي تحمل إلي بين ذراعيها. كان توم قد تقدم خطوتين داخل المكتب، وإذا به يجفل عندما رآهما.

كان أول تعبير ارتسم على ملامحه هو الرغبة في الهرب. لكن ما لبث أن بدا الافتتان على ملامحه وهو يحدق في هذه الطفلة الواسعة العينين، الرائعة الجمال، التي لم يرها إلاّ مرة منذ ولادتها.

مرت الثواني وهو يتأملها، وما لبث أن رغب بالهرب مرة أخرى. عندئذ تقدمت كاس نحوه، ووضعت الطفلة بين ذراعيه، فلم تترك له أي خيار. وبقيت ممسكة بها إلى أن تأكدت أن الأب يمسك ابنته بشكل جيد، ثم تراجعت إلى الخلف.

مرت لحظة بدا فيها الخوف على توم من هذه اللفافة التي يحملها. ربما لم يحمل طفلاً من قبل في حياته، لكن الصدمة التي بدت على وجهه تحوّلت إلى تعجب.

عندما ابتسم أخيراً، فبادلته إلي ابتسامته، بدلاً من أن تبكي، تملك كاس شعور بالارتياح.

قال، وهو ما زال يشعر بالدوار: «إنها رائعة الجمال!».

وبعد عدة ثوانٍ، تمتم يقول: «لم أكن أعرف..».

ربما أراد أن يقول إنه لم يكن يعرف مدى جمالها. لكن كاس فكرت في أن ما أراد قوله أعمق من ذلك، بدا واضحاً تماماً أن توم قد وقع في حب ابنته على الفور.

هز رأسه، وقال شارحاً لكاس: «تملكني الغضب البالغ حين عرفت بأمر طفلتها الأخرى، وظننت أن هذه كذبة أخرى تضاف إلى أكاذيبها الأخرى، وبدأ يخيّل إليّ وكأن كل حديثها كذب في كذب. لكن الأمر لم يكن كذلك!».

فقالت محاكية نبرة الأمل في صوته: «لا. إنها ليست كذلك!».

فعاد يقول وهو يبتلع غصة ويستدير نحو الباب: «إنها رائعة الجمال».

حاولت كاس أن تتبعه، لكن دراي أمسك فجأة بذراعها، قائلاً: «دعيه يذهب وحده! إنه بحاجة إلى الانفراد بها».

أدركت كاس ذلك، سمحت لدراي بأن يمنعها، واستدارت لتواجهه، وهي تسحب ذراعها من يده بخفة، وتسأله مترددة: «هل أنت واثق؟ ماذا لو بكت؟».

قال يطمئنها بجفاء: «عندها، سيفعل ما يفعله معظم الرجال، فيعيدها إليك. أما الآن، فهلاّ فسّرت لي ما كان توم يعنيه بقوله (طفلتها الأخرى). المفروض أنه كان يتحدث عن أختك».

أخذت كاس تفكر بالمضي في الكذب، فقد وعدت توم بذلك أثناء الجنازة. لكنه كشف الأمر لتوّه.

أجابت: «نعم».

فرفع حاجبه وقال: «إذن؟».

فاعترفت بفتور: «لقد أنجبت بين طفلاً من قبل».

ـ وهل عرضتها للتبني؟

ـ لا. لقد ماتت.

ـ كما ماتت طفلتك؟

فأومأت بالإيجاب.

ـ يا لها من مصادفة!

واشتبكت عيناه بعينيها. استطاعت أن تبقي نظراتها ثابتة، لكن الشعور بالذنب زحف إلى وجهها.

ـ أنثى أم ذكر؟

ـ أنثى.

ـ تاريخ الميلاد؟

ـ في الرابع والعشرين من نيسان.

ـ وتاريخ مولد طفلتك؟

ـ أنا..

وكرهت أن تستمر في الكذب. فقال يساعدها: «دعيني أحزر، في الرابع والعشرين من نيسان أيضاً».

فأجابت: «نعم».

ـ بقي سؤال واحد، هل الطفلة لك أم لها؟

وجدت كاس أن ليس هناك ما يدعوها إلى الاستمرار في الكذب، فقد سبق ومُسّت سمعة بين، ولم يعد توم يهتم بما يظنه دراي.

فأجابت: «لها هي!».

أوماً وكأن ذلك لم يدهشه، ثم قال: «حسناً، ليس من الصعب أن يتصور الإنسان لماذا أبقت ذلك سراً».

وبدا في صوته المرارة، لكن كاس لم تعرف لما شعر بذلك.

فقالت: «وهل كان أمامها خيار آخر؟ فأنت لم تكن راضياً عن ذلك الزواج. لو علمتم أنت وبقية أفراد الأسرة أنها أنجبت طفلاً عندما كانت في السادسة عشرة، فهل كنتم ستقبلونها في أسرتكم؟».

لم يجادلها في هذه النقطة، بل قال: «لماذا إذن قالت إنك أنت التي مررت بهذه التجربة؟».

ـ لكنها لم تقل ذلك بالضبط، أليس كذلك؟ أنت استنتجت ذلك بنفسك.

ـ ربما، لم أفكر حينذاك بالأمر على النحو الصحيح. فقد تركتني أنت فجأة، وتركت أختك تشرح لي الأمر.

لكن كاس قاطعته قائلة: «ماذا؟ أنت الذي تخلّفت عن موعدنا في المطعم، واخترت الذهاب إلى باريس، بدلاً من ذلك.. ولم تكن وحدك!».

فتنهد بعمق وقال: «حينذاك، حصلت أزمة مفاجئة في مركزنا في أوروبا. ولم يكن أمامنا، أنا وتوم، سوى أن نستقل الطائرة. وتصورت أنك ستتفهمين الأمر، لا أن تتخذيه عذراً لكي تخرجي مع رجل آخر».

حدقت كاس إليه بحيرة، ما الذي يتحدث عنه؟ فهي لم تخرج مع رجل آخر. كما أنه قال إن توم سافر معه؟ لكن بين قالت...

نعم، سافر توم فعلاً في عمل. لكنها لم تقل لها إنه كان مع.. لم تتحدث بالتفصيل. افترضت كاس بنفسها ذلك.. فتركتها بين تفترض ما تشاء.

وهزت رأسها عندما أخذت أحداث الماضي تتضح فجأة أمام ناظريها.

فقال وقد أساء فهم صمتها: «لا تنكري، لقد اتصلت في آخر ذاك النهار، ثم في اليوم التالي، ولكنك كنت في الخارج. حاولت بين أن تتسترّ عليك قبل أن تعود فتعترف...».

فقاطعته كاس بهدوء قائلة: «كنت موجودة».

نظر إليها غير مصدق: «وهل كنت موجودة في كل مرة اتصلت بك فيها؟ مساء الجمعة حين ذهبت شخصياً وجلست أمام بابك حتى الواحدة صباحاً؟».

فقالت بذهن شارد: «هل ذهبت إلى بوركشاير حينذاك؟».

جاهدت كاس لتستوعب دور أختها في كل هذا. يبدو أن بين فعلت ما

بوسعها لتدمّر علاقتها بدراي.

أجابها بخشونة: «إذا كان هذا صحيحاً، فلماذا لم تخبرني أختك بذلك؟ لماذا جعلتني أظن أنك خرجت مع عشيق آخر؟».

فقالت بشيء من الضعف: «لا أدري!».

أجفل دراي غير مصدّق: «هل تقولين إنها كانت تكذب؟».

لم تشأ كاس أن تعترف بهذه. لكنها كانت تعرف أن بين كذبت.. لم تتصور قط أن أختها قادرة على الخداع والإحتيال إلى هذا الحد، خداعها هي!

تجاهلت سؤاله، وسألته: «هل بين من أخبرك الأشياء التي قلتها لي أثناء الجنازة، عن أنني لا أكتفي بعلاقة واحدة، وأخرج مع الآخرين من دون مبدأ؟».

تردد لحظة قبل أن يومىء قائلاً بمرارة: «سمعت منها بعض التعليقات عندما عادت من شهر العسل، واكتشفت أننا نخرج سوياً، لكنني لم أعر تعليقاتها أيّ اهتمام. ولكن عندما ذهبت إلى باريس، واختفيت أنت، بدأت أسلّم بما أخبرتني».

أدركت كاس أن بين خدعتهما هما الإثنين، وقد ساعداها في ذلك.

وكرر سؤاله: «هل تقولين إنها كانت تكذب؟».

وأخيراً أجابت: «نعم، في كل شيء!».

لكنها لم تدهش حين رأته مشككاً، وأضاف قائلاً: «ولكن لماذا فعلت كل ذلك؟».

هل هي الغيرة؟ أترى بين كرهت أن تنجح كاس في إقامة علاقة مع دراي، بعد أن فشلت هي؟

راحت كاس تفكر في سبب آخر لتعطيه لدراي. قالت: «ربما أرادت أن ترى مدى تسامحك مع الفتيات ذوات الماضي.. ويبدو أنك فشلت!».

ولوت شفتيها. فأجاب متحدياً: «أنا فشلت؟ بقيت أتصل بك حتى اليوم الذي أقفلت أنت فيه الهاتف في وجهي. عند ذلك فهمت ما أردتِ أن تقوليه لي».

كان كل ما فهمه خطأ، طبعاً. لكن كاس لم تشأ أن تطيل الحديث عن الماضي، فسيجعلها تحن وهي تتصور المستقبل الذي كان يمكن أن يعيشاه معاً.

وأخيراً قالت بحدة: «لا يهم ماذا فعل أحدنا بالآخر؟ فأنت لم تكن تنوي إقامة علاقة جادة معي، أنا الفتاة التافهة المستخدمة في متجر».

فأجاب بنفس الحدة: «أنت محقة، لو فكرت بالأمر من قبل، لما أقدمت عليه!».

فقالت وهي تظن أنها أثبتت رأيها: «أرأيت؟ إنني محقة».

فأجاب بخشونة: «وبمَ تفسرين انتظارك أمام بابك، كفتى أمرضه الحب؟».

يبدو أنه ما زال يصدق أكاذيب بين، لكن كاس تعبت من محاولاتها تبرئة أختها. والحقيقة لن تغير شيئاً على أيّ حال، فقالت: «كل هذا مضى وانتهى!».

وأوشكت أن تتركه وتبتعد، لكنه أمسك بذراعها يديرها إليه قائلاً: «حقاً؟».

ومن دون إنذار، أخذها بين ذراعيه.

منعتها الصدمة من التصرف في البداية، ولكن عندما طال العناق، شعرت بمزيج من الغضب والمشاعر المحمومة جعلتها تصرخ سروراً واحتجاجاً معاً، وإذا بها تدخل مرة أخرى عالم الضياع ذاك، حيث ليس للوقت وللمكان وللفروق معنى. الحقيقة الوحيدة هي هاتان اليدان اللتان تشدانها إليه، بينما قلبها يخفق بشدة.

كان يتنفس بعنف عندما رفع رأسه أخيراً وهو يتفحص وجهها باحثاً عن الحقيقة. وكانت الحقيقة هناك، في عينين تنطقان بالمشاعر، وشفتين منفرجتين شوقاً. ولم تعد تستطيع إخفاء مشاعرها، فتمتم هامساً: «أخبريني الآن أن كل هذا مضى، يا كاس».

كان يعلم أنها لن تستطيع.

كان بإمكانه أن يعانقها مرة أخرى وستسمح له بذلك، لكن الباب انفتح من دون إنذار. كان القادم توم والطفلة بين ذراعيه، وأخذ ينقل نظراته بين كاس ودراي.

أفلتت من بين ذراعي دراي، رغم أنه بدا واضحاً ما كان يفعلانه.

بقي توم ينقل نظراته بينهما بدهشة، لا يدري كيف يتصرف وقال أخيراً: «أنا.. آسف».

تمالكت كاس نفسها في النهاية وقالت: «أتريدني أن آخذها منك يا توم؟».

ومدت يديها إلى الطفلة الباكية. فناولها إياها بشيء من الارتياح، لكن نظراته بقيت تلاحق الطفلة. بدا أن الصلة باتت وثيقة بينهما، فقالت لتوم: «احتاج إلى سيارة تأخذني إلى نورث دين، هل يمكنك أن توصلني؟».

ـ نعم، طبعاً.

ثم قال لأخيه: «هل تحتاجني بشيء؟».

فأجاب هذا: «لا».

لكن عينيه كانتا على كاس يتهمها بالهرب من الوضع. ولم تهتم كاس، فاتجهت نحو الباب وهربت.

كان عليها أن تنظم أفكارها، وتسأل نفسها عما تريده. كانت تعرف ما يريده، فقد أوضح ذلك.

في طريقهما إلى نورث دين، قال توم فجأة: «هل أنتما..؟».

وسكت تاركاً كاس تكمل، لكنها لم تكن هي نفسها واثقة مما بينهما. هل هو (الحب).. أو (شعور عابر) وهذا غير صحيح! ماذا كان بالضبط إذن؟

وأخيراً أجابت: «لا».

ـ ظننت، عندما رجعت..

وسكت مرة أخرى. فهزت رأسها وقالت: «إنها مجرد زيارة سريعة إلى الذاكرة».

قطب توم جبينه قبل أن يقول: «طبعاً.. لقد نسيت أنكما كنتما يوماً..».

فقالت: «كنا صديقين».

لكن لهجتها كانت تنبىء بكل شيء عدا ذلك. فتابع توم يقول: «لم أعرف قط ماذا حدث بينكما. لم يذكر دراي شيئاً، أما بين فقالت إنكما أدركتما فجأة أنكما غير متلائمين».

انتاب الغضب كاس مجدداً. فقالت بخشونة: «كانت محقة. لم نكن نتشارك الاهتمامات نفسها».

وأضافت تغير الموضوع: «ما هي خطتك، بالنسبة إلي؟».

فأجاب: «لا أدري».

ونظر من المرآة إلى الطفلة في مقعدها على المقعد الخلفي، وتابع يقول: «أودّ لو أحضرها إلى البيت حالاً، لكنني لا أعرف كيف سأتدبر الأمر».

بدا غير واثق، لكن كاس سُرّت لسماع ذلك، فسألته: «هل لديك مدبرة منزل؟».

ـ لا. كانت بين تفضل دوماً أن تحضر امرأتين من المدينة للتنظيف.

ـ حسناً، هذا لن يكون سهلاً. ولكن مع امرأتين تنظفان البيت ومربية للطفلة، يمكنك تدبّر الأمر.

فقال وهو يعض شفته: «نعم، حسناً، عليّ أن أرى».

كان توتره واضحاً، وفضّلت ألاّ تضغط عليه. كان اهتمامه بالطفلة يكفي الآن.

عندما وصلا إلى نورث دين، دعته إلى الدخول، وأحضرت له القهوة والحليب للطفلة. وعندما ناولته زجاجة الحليب، تفاجأ أولاً لكنه سرعان ما اعتاد استعمالها.

جلست بجانبه ترشف القهوة وتنظر إلى الأب والإبنة وهما يتعرفان إلى بعضهما البعض. يبدو أن خطة دراي المحفوفة بالمخاطر بدأت تؤتي ثمارها. كان واضحاً أن توم قد افتتن بابنته.

ومع هذا المشهد العائلي، دخل دراي كارليزل، ولكنه لم يكن مسروراً. فقد رفض القهوة التي عرضتها عليه، وما لبث أن غادر المنزل من دون أن ينطق بكلمة.

فقال توم: «إذا كان منزعجاً من أحدنا، فلا بد أنه منزعج مني وليس منك».

فهمت كاس ما أراد توم قوله، لكنها سألته: «منك أنت؟».

- نعم.. فقد ظننت لفترة أنه، هو وبين.. حسناً، أنهما كانا على علاقة..

- نعم. لقد أخبرني بذلك.

- هذه سخافة، أعرف هذا الآن.

ومنعت نفسها من سؤاله، وهل هي سخافة حقاً؟

وتابع توم يقول: «لم أكن واثقاً من ذلك. كنت أحمق حين ظننت أنها ليست ابنتي».

وأخذ ينظر إلى ابنته التي استغرقت في النوم، فبدت أشبه بملاك. كانت تشبه الرجلين معاً.

سألته: «لماذا ظننت ذلك؟».

فأجاب: «لأن بين ادعت أنها ستلد في منتصف الصيف، وعندما ولدت إلي في أيار، في شهرها التاسع، أخذت أتساءل لماذا كذبت في المواعيد ولماذا أخفت عني أنها حامل في الشهرين الأولين».

فقالت له برقة: «يمكنني أن أساعدك في ذلك. جاءت إليّ لتسألني عن مخاطر حملها مرة أخرى. وبما أنني لم أكن أعلم أنها حامل، نصحتها بألاّ تفعل، ولا بد أنها فكرت في ما عليها أن تفعله قبل أن تخبرك».

فأومأ توم قائلاً: «بدأت أفهم الآن. لكنني، حينذاك، شككت في كل شيء. وعندما قال لي الطبيب بأنه ليس حملها الأول، أثار هذا شكوكي.. لماذا أخفت ذلك عني؟».

فأجابته ببساطة: «كانت تخشى أن تتركها».

فهز رأسه وقال: «لقد جعل هذا زواجنا كله زائفاً. سألت نفسي لماذا كذبت بالنسبة إلى تاريخ حملها؟ وتذكرت أنني سافرت إلى أميركا لمدة أسبوع حين حملت بإلي. فاقتنعت بأنها لا يمكن أن تكون ابنتي».

قالت: «لا أظن أن أحداً يلومك».

فلوى شفتيه قائلاً: «باستثناء دراي. عندما أحضر لي فحص الدم الأول، مثبتاً أنها من أسرة كارليزل، بقيت واثقاً من أنها ليست ابنتي إلى حد اتهمته هو بأنه والدها. لم ينكر دراي هذا، ولكنني كنت أعرف أن هذه ليست عادته، فهو لا يدافع عما لا يمكن الدفاع عنه، ولا يعتذر عن خطأ شخص آخر».

سألته كاس: «أتعني أنه، سواء أكان مذنباً أم بريئاً، يكون تصرفه هو نفسه؟».

- أظن ذلك. على أيّ حال، كل ما قاله هو، إنهض، إلبس ثيابك واذهب لإجراء اختبار، ثم خرج من الغرفة ببرودة. ومنذ ذلك الحين لم نعد نتحدث مع بعضنا البعض.

- أما زال يعتقد أنك تظن أنه كان على علاقة ببين؟

فتأوه قائلاً: «لا أعرف، فقد تجنبته، لأنني كنت أحمق في اتهامي له. ولا بد أنني جننت إذ تصورت ذلك، فهو حتى ولو كان يشعر بالمودة نحو بين، أشرف من أن يتصرف معي بذلك الشكل».

لم تكن كاس مقتنعة إلى هذا الحد، وقال توم باستسلام: «ربما عليّ أن أذهب وأتحدث إليه».

لم تحب كاس، فما يجري بين الأخوين يخصهما. كل ما رجته هو أن تكون الحقيقة قد ماتت مع بين، إذا كان دراي قد خدع توم.

أضاف توم: «وماذا بالنسبة إليك؟».

- إليّ أنا؟

- أعلم أن ليس بإمكانك البقاء هنا، والعناية بإلي إلى الأبد.

فقالت وهي تشعر بأنها ربما أطالت الإقامة هنا: «لا، فأنا أنوي

الذهاب عندما نعثر على مربية مناسبة. في الواقع، استقبلت مرشحة مناسبة عصر هذا اليوم، هل تودّ أن تقابلها؟».

ـ أنا؟ نعم أظن ذلك.

أومأت، لكنها قررت ألاّ تزيد الضغط على توم حالياً. فقد بدا واضحاً أنه ممزق بين مشاعر الأبوة نحو إلي، والخوف البالغ من المسؤولية تجاه طفلة صغيرة.

ومع ذلك، شعرت بالأمل حين أخذ يلامس خد طفلته بإصبعه، قبل أن يناولها إياها.

صعدت كاس بعدها إلى الطابق الأعلى لتحضّر الطفلة للنوم، فألقت نظرة خاطفة من نافذة تطل على الفناء. رأت دراي يقف مع توم وكانا مستغرقين في حديث لم تستطع سماعه.

لم تتأكد مما إذا كانا يتشاجران أم يتصالحان إلى أن حانت لحظة الافتراق، فتعانق الأخوان، ورأت ابتسامة الارتياح على وجه توم.

وفي الساعة الثامنة نزلت كاس كارهة إلى الطابق السفلي، لأنها لم تكن قد تناولت أي طعام منذ الغداء.

كانا أحياناً يأكلان، جنباً إلى جنب، في المطبخ، أما الليلة فقد أعدّت الطاولة في غرفة الطعام. سرت كاس لهذا، لأن بإمكانها أن تجعل بينهما مسافة كافية.

وبدا دراي غير مستعجل لإصلاح أي نزاع بينهما. فجلس إلى المائدة في الناحية المقابلة ثم لاذ بالصمت، متأملاً بشرود. لقد عادت الحرب الباردة، ولعل هذا أفضل. فهي تشعر بالارتياح عندما يكون مهذباً معها.

لكنها عادت تشعر بالتوتر، وهي ترى العبوس على وجهه الوسيم.

رمقته بنظرة فارغة، فبادلها بابتسامة، لكنها كانت ابتسامة مصطنعة.

وقال فجأة: «عليك أن تتحضري لأجل ما سيحدث».

فسألته: «وماذا سيحدث بالضبط؟».

واكتشفت فجأة في نفسها نزعة إلى التهوّر. هل توقعت منه أن يتراجع؟

لكنه لم يتراجع، فهو ليس من الرجال الذين يفعلون ذلك، ولعلها لا تريد منه ذلك.

سكت لحظة قبل أن يجيب: «حسناً، أولاً سنتشاجر قليلاً لأن ذلك ما نفعله دوماً، ونحن ماهران في ذلك. ثم سنتعانق لأننا نحن الاثنين نريد ذلك، حتى إننا أفضل في هذا.. أم أنك نسيت؟».

ولم تنس كاس، وكيف يمكنها ذلك؟ كان دراي يلتهمها بنظراته.

صدمتها صراحته. رفع حاجبيه متعجباً وقال: «أما من تعليق؟ هل هذا يعني أن بإمكاننا أن نتجاوز الجزء المتعلق بالشجار ونذهب مباشرة إلى الحدث الرئيسي؟».

وأخيراً استطاعت أن تقول: «لا، إنه يعني في الحقيقة..».

وصمتت قبل أن تضيف: «إني شعرت بالغرور لمثل هذا العرض الشاعري منك. أظنني سأتجاوز ذلك الجزء، أنا أيضاً، ثم أذهب مباشرة إلى السرير.. وحدي!».

أضافت الكلمة الأخيرة بسرعة قبل أن يفسر كلامها كما يحلو له. وقرنت القول بالفعل، فنهضت واقفة واتجهت نحو الباب.

سمعته ينهض عن كرسيه ويهتف بها: «انتظري!».

لكنها استمرت في السير خارجة إلى الردهة ومنها صعوداً إلى الطابق الأعلى.

عندما وصلت إلى فسحة السلم، أدركت أنه كان يتبعها وأن وقت الهرب فات. أكملت صعود السلم ركضاً، لكنه أمسك بها وأدارها إليه.

نهرته بغضب قائلة: «دعني أذهب!».

فقال: «سأتركك بعد لحظة، لا تخافي! فأنا لا أفعل شيئاً لا تريدينه».

تلك هي المشكلة.. فما الذي تريده؟

ألحت قائلة: «عليّ أن أذهب لأتفقد إلي».

تحوّلت عيناه إلى حزام تنورتها حيث علّقت جهاز الإستماع إلى الطفل. كان الضوء أخضر مما يعني أن الطفلة لا تواجه أي مشاكل.

فقال: «لا أعتقد أنها بحاجة إليك».

فقالت غاضبة: «لا بأس. أريد أن أبتعد عنك قبل أن أفعل شيئاً نندم عليه نحن الإثنين».

لم يزعجه هذا التهديد وقال ببطء: «لن أندم عليه!».

ـ سأصفعك.

ـ أعرف هذا.

ـ ألا يزعجك ذلك؟

ـ أول صفعة منك انتهت بعناق.

لكن كاس بقيت غاضبة، وقالت: «كانت لحظة جنون لن تتكرر..».

ونزعت ذراعها من يده وهي تتابع بحدة: «إذا كان هذا كل ما تريده مني..».

فتوترت شفتاه وقال: «لا. هذا ليس كل ما أريده منك. إذا كان الأمر كذلك، ألا ترين أن بإمكاني أن أبحث عن امرأة أخرى؟ أنت تعلمين أنك لست أسهل امرأة في العالم».

فقالت هازئة: «حقاً؟ لدي انطباع بأنك تظن العكس».

فقال: «كنت أتحدث عن الشخصية. ولكن إذا شئت أن نتحدث عن..».

فقاطعته: «ليس تماماً...».

فتجاهلها: «إذن، لا بأس، ربما كنت أحمق حين صدقت أختك..».

فقاطعته قائلة: «ليس هناك (ربما) في الأمر».

ـ لكنني أردتك رغم كل شيء، أردتك حتى ولو كنت على علاقة برجل آخر. بقيت أرغب بك لمدة طويلة بعد أن تركتني.

اعترف بهذا بصوت منخفض. فصمتت كاس. ترى هل الشعور الذي خالجه بهذه القوة حقاً؟ أتراه تألم كما تألمت؟

أضاف: «ما زلت أرغب بك يا كاس».

لم تكن كاس تشك في ذلك، لكنها هزت رأسها، فالرغبة ليست حباً،

الرغبة زائلة.

رفع يده يلامس خدها بأصابعه، فارتعشت شوقاً، لكنها قاومت مشاعرها، وتراجعت خطوة قائلة: «دعني!».

ضاقت عيناه لهذا الرفض. هل جرحت كرامته برفضها؟ وماذا غير ذلك؟

قال وهو ينتفض: «لِمَ ترفضينني؟».

فواجهته قائلة: «لِمَ؟».

فقال: «ألأني مسألة عالقة؟».

فأجابت: «أليس هذا كل ما أعنيه لك؟».

ـ لا، ويمكنني أن أثبت ذلك.

إذا سمحت له، فسيتغلب عليها في النهاية وتضيع إلى الأبد. الأفضل إذن أن تفلت من سحره الآن.

فقالت: «أنت لا تحب أن يتخلى عنك أحد، أليس كذلك؟».

تجهّم وجهه، فأدركت أنها أصابت الهدف.

قال بصوت خشن: «ومن يحب ذلك؟ أتظنين أن الانتقام هو هدفي؟».

بدا واضحاً أنه لم يشأ أن تشك في دوافعه. هل كانت على صواب؟ أتراهما سينجحان في إعادة الماضي إلى الحياة وبهذا ينتصر دراي كارليزل هذه المرة؟

فقالت بفتور: «حسناً، لا حاجة إلى الانتقام في الواقع، أنا لم أتخلَ عنك يا دراي. ما حدث كان بسبب بين».

سكت لحظة من دون أن يفهم، ثم سألها: «ماذا تقولين؟».

ـ أتكلّم عن آخر موعد لنا في ذلك المطعم، ذهبت أنا حسب الموعد، لكن بين أقنعتني بأنك ذهبت إلى باريس، وذلك عندما عدت إلى البيت. وفي الوقت نفسه جعلتني أعتقد أنك لم تكن وحيداً..

ـ أتتوقعين مني أن أصدق هذا؟

ـ الأمر عائد لك. لكنها الحقيقة!

بقي دراي مشككاً، وقال: «اتصلت في وقت متأخر تلك الليلة، وكنت لا تزالين في الخارج».

- بل كنت هناك.. في غرفتي في الطابق الثاني.

وكانت فعلاً في غرفتها مستغرقة في البكاء.

أخذ يتذكر عابساً وقال: «أجابت أختك على الهاتف ووعدت أن تجعلك تتصلين بي، ثم اتصلت في اليوم الثاني وعندها أخبرتني أنك انتقلت إلى صديق جديد. ظننتها مخطئة، ما جعلني آتي من المطار مباشرة إلى بيتك لأجلس أمام الباب أنتظرك. لكنك لم تأتِ قط».

فقالت: «زرت بعض الأقارب في يوركشاير بدلاً من البقاء في البيت حيث الحزن والكآبة. كما ترى كان كل منا يظن أن الآخر تخلّى عنه».

اتسعت عيناه عندما أدرك أن ما فرق بينهما كان خداع بين وليس عمل كاس. وأخيراً سألها: «لماذا تخبرينني بهذا الآن؟».

فرفعت رأسها تتحداه: «لهذا السبب ما زلت تريدني، أليس كذلك؟ لأنني الفتاة التي جرؤت على أن تنهي العلاقة قبل أن تنهيها أنت؟ لكنني في الواقع لم أنهها، بل بقيت معلقة، مثلك بالضبط».

كان بإمكانها أن تقول أنها بقيت محطمة، ولكن هذا كان شأنها الخاص.

آخر ما توقعته كان تلك الضحكة الخالية من المرح التي أطلقها.

فقالت له باستياء: «ألا تصدقني؟».

ودهشت عندما أجابها: «في الحقيقة، أصدقك، كلامك مقنع من كافة النواحي».

فسألته: «وما المضحك إذن؟».

فأجاب: «المضحك هو أن تظنّي أن رغبتي ناتجة عن مجرد الرغبة في الانتقام. ومن المحزن أن تكون لديك مثل هذه الفكرة الوضيعة عن نفسك..».

فقاطعته قائلة: «انتظر لحظة!».

لم تخبره الحقيقة لكي يبدأ بتحليلها نفسانياً. وتابعت تقول: «إذا كان

هذا الانتقاد ينطبق على أي شخص، فهو لا ينطبق عليّ».

فرفع حاجبيه وقال: «لا؟ لعلي شعرت بالانجذاب نحوك لأنك أكثر النساء اللاتي عرفتهن ذكاء وقوة شخصية وأنوثة».

فتلعثمت، وقالت: «أنا.. أنا..».

ولم تستطع أن تجد جواباً. لكن دراي لم يكن بحاجة إلى تشجيع لكي يتابع: «أو لأنني، في كل مرة تبتسمين فيها، أكتشف كم أنت رائعة الجمال!».

كانت عيناه تؤكدان أنه يعني كل كلمة يقولها. ومدّ يديه يجذبها إليه وهو يقول: «أو ربما لأنني أمضيت ليلة بعد ليلة، أتصورك زوجة لي في بيت يملأه الحبّ».

أصبح صوته همساً على خدها وهو يدفن وجهه في شعرها. جعلت كلماته الرقيقة نبضات قلبها تتسارع. شعرت.. بقلبها.. وبقلبه وكأنهما قلب واحد. أغمضت عينيها لكنها استمرت تشم رائحة الرجولة فيه. وأخيراً استسلمت لمشاعرها وأدارت رأسها نحوه تلتمس عناقه، مغمضة عينيها.

كان عناقه كل ما تتوق إليه.. وكل ما تخشاه. فيما الشوق يسري في عروقها مع الدم، بسرعة أحدثت دوراناً في حواسها.

أحست برأسها يدور، وبساقيها واهنتين. عندما ضمها بين ذراعيه وأدناها منه أكثر.

***

١٠ ـ وعود الحب الخالد

كانا ظلّين في العتمة الخفيفة، وتابع معانقتها وهو يتخلل شعرها بيده.

قال: «أحبك يا كاس».

وأحست بالابتسامة ترتسم على وجهه الوسيم. كان جذاباً للغاية بقامته الفارعة وعضلاته القوية. وأرادت أن تصرخ به، أن تبعده عنها، لكنها لم تستطع. فهي تحتاج إليه كما تحتاج إلى الطعام والشراب لكي تعيش.

تركته يعانقها، فشعرت ببهجة نسيتها منذ زمن طويل..

حدّقت في الرجل الواقف أمامها، وانتبهت إلى قلبها يخفق عالياً.

رآها تنظر إليه فابتسم ثم شدها إليه لكنها قاومته وابتعدت عنه. أمسك بيدها قبل أن تبتعد وسألها: «ماذا حدث؟ لا تقولي إنك تشعرين بالندم؟».

هزت رأسها. فهي تشعر بالندم على حبها البالغ له.

اختلقت عذراً لتبتعد عنه، فقالت: «أريد أن أتفقد إلي».

لكن هذه الحجة لم تنفعها. فقد التفت إلى جهاز مراقبة الطفلة ورأى الضوء الأخضر.

قال يطمئنها: «إنها بخير».

فقالت: «اسمع. لا أريد أن أجادلك..».

فقاطعها قائلاً: «حسناً».

ومد ذراعه يحيط بها ويضمها إليها، وهو يتابع: «أفكر بأشياء أهم بكثير عليّ أن أقوم بها».

تذكرت كاس الألم الذي شعرت به عندما فقدته منذ ثلاث سنوات،

وشعرت بالحاجة لأن تحمي نفسها.

فقالت وعيناها تتوسلان إليه أن يفهم، ويدعها تذهب: «لا يمكنني أن أفعل هذا، يا دراي».

حاولت أن تبتعد عنه لكنه أسرع يمسكها: «ما الذي لا يمكنك أن تفعليه؟».

فأجابت: «أن أتورط أكثر مما ينبغي».

فقال بصوت متوتر: «تتورطين أكثر مما يجب؟».

فأجابت بضعف: «عاطفياً».

بدا عليه الذهول لحظة، ثم كسا الغضب وجهه، فظنّت كاس أنها تصوّرت أولى ردات فعله.

كادت أصابعه تسحق ذراعها قبل أن يتركها فجأة، ويقول هامساً بخشونة: «إذن إذهبي.. إذهبي إلى جهنم!».

سمعت الألم في صوته. كان مماثلاً لألمها، لكن ألمها جاء نتيجة الحب، بينما ألمه..

عادت تنظر إليه لكنه أشاح بوجهه. وقبل أن تجد الوقت لتجيبه، دخل غرفته وأقفل الباب خلفه. لقد طردها بشكل نهائي.

في البداية، منعها الارتجاف من أن تتحرك وشعرت بالحاجة إلى الهرب. لكنها الآن، بعد أن فتح لها باب القفص، لم تعد تريد أن تهرب.

ما الذي فعلته؟ لو بقيت ساكتة، لأمضيا معاً أسابيع أو شهوراً أو حتى سنة. وهذا، حتماً، أفضل من لا شيء. ولكنه نسيها بسهولة المرة الماضية، ويبدو أنه سينساها بسهولة هذه المرة أيضاً!

وانهمرت الدموع من عينيها، وهربت إلى الطابق الأعلى.

كانت لا تزال تستعمل غرفة المربية بجانب غرفة الحضانة. ولم تسمع أي صوت للطفلة، فارتدت بنطلون جينز وقميصاً ثم وضعت حقيبتها على السرير وأفرغت فيه ملابسها الداخلية.

وعادت دموعها تنهمر فلم تعد ترى، وجلست على الأريكة عند

النافذة. لم تكن المشكلة أنها لا تملك مكاناً تذهب إليه، لأن بإمكانها أن تجد غرفة بسهولة. لكن الصعوبة تكمن في أن تجد الإرادة للمغادرة.

انفتح الباب خلفها ثم انغلق، لكنها لم تلتفت. كانت تعلم أنه هو، وظنت أنها إذا لم تتكلم سيتركها ويذهب، لكنه تقدم نحوها.

قال بدهشة: «أكنت تبكين؟».

فقالت بغضب: «أهنتك! أنت سريع الملاحظة!».

لم يهتم بكلامها، بل قال ببساطة: «أنا لا أفهمك».

فقالت في محاولة للاعتذار: «لقد صرخت بوجهي».

فردّ عليها: «وأنت تخلّيت عني».

فقالت بإصرار: «لم يكن الأمر كذلك».

فقال وهو يتفحص وجهها المبلل بالدموع: «أحقاً؟ لكنه بدا لي كذلك فعلاً».

فقالت تذكّره: «لقد شرحت لك الماضي».

فأجاب: «أتحدث عما جرى منذ قليل. متى تريدين أن تشرحي لي؟ بعد ثلاث سنوات إذا ما حدث وتقابلنا بالصدفة؟».

شعرت كاس بغصة، فهي لا تريد أن ينتهي هذا الأمر، ولا تريد أن تترك هذا الرجل. وإذا فعلت، فستندم طوال حياتها.

ـ لم يكن الأمر بيننا مجرد علاقة عابرة. كان..

كان حباً. لكنها لم تستطع أن تنطق بهذه الكلمة، فهو سيسخر منها. ولكن عليها أن تقول شيئاً لتصلح الخلاف الذي حدث بينهما.

وانتظر فاعترفت رغماً عنها: «أكنّ لك شعوراً، وأريد أن تستمر العلاقة فترة أطول».

قطب حاجبيه، لم يكن ينتظر هذا الجواب المفاجيء. وقال: «حدّدي الفترة بالضبط!».

طرفت بعينيها إزاء لهجته العملية، وقالت: «ماذا؟ أنا لا.. لا أعرف. ربما شهر أو شهران، وربما أطول».

فقال بنفس الصلابة الفولاذية: «كوني دقيقة!».

فقالت وهي تتساءل عما يتوقعه: «وكيف يمكنني ذلك؟».

ـ أذكري التاريخ!

ـ أذكر التاريخ؟

ـ التاريخ الذي تنوين الرحيل فيه.

فحدقت إليه، متسائلة عما إذا كان يمزح.

لكنه أضاف بجد بالغ: «أريد أن أعلم».

فقالت: «لماذا؟ من المحتمل أن تتركني أنت أولاً».

ـ لا، لن أفعل هذا.

قال هذا وكأنها حقيقة غير قابلة للتحوّل، ولم تفهم كيف يمكنه أن يتأكد من ذلك.

فسألته: «هل هذه لعبة منك؟».

ـ لا، لماذا تظنينها كذلك؟

ـ هل هذا.. من أجل إلي؟

ـ إلي؟ وما دخل إلي بهذا كله؟

ـ لن أتخلى عنكما في وقت الشدة، إذا كان هذا ما يقلقك.

ـ لا شأن لإلي بهذا الأمر، توم سيأخذها إلى بيته حالما يجد مربية مناسبة لها.

ـ حسناً.

فقال بشيء من السخط: «هل تتصورين حقاً أن هذا ما يدعوني لإبقائك هنا؟ بإمكاني أن أحضر مربية مؤهلة لهذا العمل».

مدّ دراي يديه يمسك بيديها يوقفها على قدميها، وهو يقول: «أريدك أن تبقي من أجلي».

ـ إذن سأبقى.

ابتسم قليلاً وقال: «ما زلت أريد أن أعلم إلى متى».

هزت رأسها بقنوط. فهما يدوران في حلقة مفرغة. وقالت: «ولكن

المواعيد لا تعني شيئاً في حالنا هذه. إنها ليست عقود عمل بحيث يتمسك الناس بها».

كانت تحاول التحدث بالمنطق لكن ذلك لم يُرق له. فقال: «يمكننا أن نعتبره عقد عمل».

ـ عقد عمل؟ من أي نوع؟

ـ من النوع المعروف، عندما يلتزم اثنان بالسكن مع بعضهما البعض.

ـ هل تتحدث عن..؟

ـ الزواج.

ـ هذا جنون!

فسألها وقد توتر فمه: «لماذا؟».

فقالت: «ماذا تقول يا دراي؟ أن نتزوج أنا وأنت؟».

بدا وكأن سؤالها جرح كرامته، فسألها: «أتظنيننا غير متلائمين إلى هذا الحد؟».

فأجابت: «طبعاً، فلنواجه الأمر. أنت غني، وأنا فقيرة. أنت..».

رفع حاجبيه ساخراً. فقالت له: «نحن غير متناسبين».

فقال بلهجة حزينة: «هل لأنني غني وأنت فقيرة؟ حسناً، هل هذا مهم؟ تزوجيني فتصبحين غنية أنت أيضاً».

لذعها قوله، فقالت بألم: «هل تظن أنني أسعى وراء أموالك؟».

فتنهد مجيباً: «طبعاً لا. كنت فقط أبيّن أن ذلك ليس ضد مصلحتك».

لم تر أيّ مصلحة له من وراء زواجه بها. فسألته: «وماذا ستستفيد أنت من ذلك؟ لن أنفعك في عملك، كما أن مهارتي في الأعمال المنزلية ضعيفة للغاية».

فكر قليلاً ثم قال: «صحبة سارّة، أولاد عدّة».

راحت تتساءل عما إذا كان يمزح، لكنه لم يضحك. لقد طرحت عليه سؤالاً فأجاب عليه، بشكل لم تتوقعه.

سألته: «هل تريد أولاداً؟».

ـ عندما تكونين مستعدة طبعاً، فأنا أدرك أن لديك مهنة عليك أن تهتمي بها.

بدا وكأنه خطط لكل شيء، لكنها لم تشأ أن تصدّق فكرة أنه يريد أن يتزوجها، وينجب أولاداً منها.

سألها بعد أن ساد الصمت: «إذاً، ما رأيك؟».

فكرت كاس أنه ربما عليها أن ترافقه إلى الكنيسة القريبة، ثم تأمل بالرفاه والبنين، لكن المشكلة أنها واقعية حتى في الحب.

قالت: «أليس في هذا شيء من التهور والتسرّع؟».

فقال بشيء من غطرسته المعتادة: «يمكنني الثقة في حكمي على الأمور من دون الحاجة إلى وقت طويل، فأنا في السادسة والثلاثين، وأدير مؤسسة لا بأس بنجاحها. وقد عرفت الكثير من النساء.. لكن أختك ليست من ضمنهن».

احمر وجه كاس للتعليق الأخير، وقد أدركت مدى حماقتها.

نظر إليها وقال: «أرجو أن تصدقيني، حتى ولو كانت أختك جميلة، لا يمكن أبداً أن أخون أخي».

لقد أثرت الغيرة على حكمها على الأمور، والغيرة شعور يدفع الإنسان إلى اساءة التصرف.

فكرت في بين والأكاذيب التي اختلقتها لتفرق بينهما. كانت أكاذيب فظيعة سببها الغيرة، ولعلها ندمت عليها إذ قالت في رسالتها الأخيرة (آسفة بالنسبة إلى دراي). لكن كاس لم تكن مستعدة للصفح عنها.

قالت لدراي: «كانت بين تراك جذاباً».

هزّ كتفيه وقال: «ليس جذاباً بقدر ما رأت ابن عمنا».

فقالت: «ابن عمك؟ أتعني سيمون؟».

ـ نعم.

فقالت: «هل هو الشخص الذي كانت..».

فأومأ برأسه: «تملكني بعض الشك، فأثبت هو شكوكي. إنه يشعر

الآن بفظاعة هذا الأمر. لكنه، حينذاك، كان مجنوناً تماماً بأختك».

فقالت: «ما زلت متفاجئة، فسيمون ليس النوع الذي تحبه بين على الإطلاق».

ـ لعلها كانت تحب إثارة الاهتمام فقط.

ـ أنا آسفة حقاً للأشياء التي فعلتها بين لأسرتك.

وأغمضت عينيها للحظة قصيرة فضغط على ذراعها برفق، وقال: «هيا! هذه ليس غلطتك».

لكن كاس رأت الأمر بشكل مختلف.

ـ كان ينبغي عليّ أن أمنع زواجها. فقد كانت صغيرة جداً على الزواج والالتزام.

سألها: «وأنت؟».

ـ أنا؟

ـ هل أنت صغيرة جداً؟

ـ لم أكن صغيرة قط في حياتي.. هذا ما اعتادت بين أن تقوله لي. كانت تقول إنني من صنف العوانس.

قالت كاس هذا من دون تفكير. وحاولت أن تنهي الحديث الذي دار بينهما. لكنه لم يضحك، بل قال بجدية: «لن تكوني عانساً إذا تزوجتني».

ـ هل هذا سبب كاف لأقبل الزواج بك؟».

فقال مقراً برأيها وهو يفكر في الشيء نفسه: «ربما لا، لكنني أعتقد أن الحب سينمو بيننا مع الوقت، إذا منحته الفرصة».

بدت كلمة (الحب) غريبة على شفتيه، مع أنه قالها لها ذات مرة من قبل.

ذلك الحب مات منذ وقت طويل، فهل بإمكانها أن تمضي حياتها في انتظار أن ينمو من جديد؟

هزت رأسها، فهي لا تريد أوهاماً بينهما، ولا وعوداً زائفة.

قالت: «إما أن يكون الحب موجوداً أو لا يكون. ولا أظنك ستستيقظ

ذات صباح، يا دراي، فتكتشف أنك تحبني. أنا لا أؤمن بأن الحب يحدث بهذه الطريقة».

لقد أحبته منذ ثلاث سنوات، وهي تحبه الآن. لم تكف يوماً عن حبه، وحدهما الألم والكبرياء حجباه لفترة.

أجابها دراي: «أنت لم تدركي قصدي. فأنا لم أكن أتحدث عن نفسي».

فقطبت حاجبيها وقالت: «لم تكن تتحدث عن نفسك؟».

كان على صواب، فهي لم تدرك قصده.

قال لها بهدوء: «أنا أحبك واعتقدت أنك تدركين ذلك».

بدا عليها الذهول، إنه مخطىء، فهي لم تدرك شيئاً. وسألته: «أنت تحبني؟».

لا يمكن أنه يحبها.

فأجاب: «أليس هذا واضحاً؟».

ليس بالنسبة إلى كاس فأجابت: «أنا.. ولكن.. تصرفاتك في الأشهر القليلة الماضية..».

ـ كان الأمر صعباً.. لكن حين التقيتك مرة أخرى.. أدركت أن مشاعري نحوك لم تتغير.

ـ لم أردتني أن أرحل بعد جنازة بين؟

ـ أدركت أنني لم أكن قادراً على السيطرة على نفسي. ظننت نفسي منيعاً، لكنني لم أكن كذلك، فقررت الابتعاد عنك. ولكن عندما ظهرت رسالة أختك، أردت أن أختبر شعوري نحوك مرة أخرى.

ـ لكنك كنت فظاً معي.

ذكرته بذلك بابتسامة، وقد شعرت فجأة بخفة تمكنها من الطيران عالياً.

رد عليها عابساً: «أثرت غيرتي حين رأيتك بصحبة صديقك الطبيب».

ـ لم يكن هناك داع للغيرة، فأنا لم أقم أي علاقة منذ انفصلنا، ما عدا علاقة قصيرة وفاشلة، عُلاقة حاولت أن أمحو بها جرحاً قديماً.

ـ جرحاً قديماً.

ـ أردت أن أنساك.

ـ وهل نسيتني؟

فنظرت إليه بثبات، لا تريد أن تخفي شيئاً. كان عليه فقط أن يستعمل عينيه، ليرى الحب بادياً على وجهها.

رأى دراي ذلك جيداً، لكنه كرر سؤاله: «هل نسيتني؟».

ـ ظننت ذلك. ولكن بعد أن خفّت مشاعري قليلاً، عادت واضطرمت بشكل لا يمكن احتماله.

استغرق دراي لحظة في فك رموز هذا التعبير وتقلبت ملامحه بين التقطيب والضحك، ثم قال: «تباً للأطباء، هلاّ أعدت قول ذلك بتعابير سهلة وبسيطة من فضلك؟».

فقالت: «نعم، لا بأس. أنا أحبك يا دراي كارليزل. أحببتك منذ ثلاث سنوات، وأحبك الآن، ودوماً سوف..».

لم تستطع أن تكمل كلامها فقد ضمها بين ذراعيه، وراح يعانقها وهو يلهث. وتركها أخيراً عاجزة عن الكلام.

قال لها بعنف: «الأفضل لك أن تحبيني على الدوام، لأنني لن أدعك ترحلين ثانية».

فقالت بثقة تامة: «سأفعل ذلك!».

ـ ماذا إذن؟ الكنيسة أم مكتب التسجيل؟

ـ ماذا؟ ألن نعيش فترة خطوبة أولاً؟

ـ لماذا؟

وتابع يسألها: «هل أنت واثقة من أنك تحبينني يا كاس؟».

أومأت بعد أن لم يعد ثمة ضرورة لأن تخفي مشاعرها. كان حبها له يبدو في كل نظرة ترمقه بها.

وأضاف بهدوء: «فلنتزوج إذن».

كان يطلب منها أن تضع ثقتها فيه، أن تقبل قوة حبه وتؤمن بحبها له.

وأخيراً، ردت عليه بنعومة: «نعم، فلنتزوج».

وتزوجا بعد ذلك بشهر في كنيسة متواضعة. كان ذاك اليوم أسعد أيام حياة كاس، لكنها بقيت حزينة لذكرى أختها الصغرى وحياتها التي بترت باكراً بشكل مأساوي.

لحظة واحدة ستبقى خالدة في ذهنها، وهي اللحظة الحاسمة بعد أن تبادلا العهود ووضع في إصبعها الخاتم، ثم نظرا إلى بعضهما البعض. لم يرها سواهما، ولكن كانت هناك، في أعينهما...

إنها وعود الحب الأبدي الخالد.

* * *